السنة الثالثة العدد ٣٦ يوليو ٢٠٢٠

كلمة حق

العدد الختامي



افتتاحية ختامية
توقف مجلة كلمة حق
محمد إلهامي

وداعاً (كلمة حق)
حامد عبدالعظيم

قرار الترشح للرئاسة والمراجعات الانهزامية
د. عطية عدلان

محمد عمارة ...
راهب الفكر وفارس الميدان (٤/٤)
د. وصفي عاشور أبو زيد

أخصر المختصر في ملامح النظام السياسي الإسلامي
محمد إلهامي

وغيرها من المقالات ..

محتويات العدد ٣٦

••• يوليو ٢٠٢٠ •••

كَلِمَةُ حَقّ
klmtuhaq
دوريــة ثقافيــة معــرفيـة
نخبة من الكتاب والمفكرين

المشرف العام
محمد إلهامي

مـديــر التحــريـر
حامد عبدالعظيم

افتتاحية ختامية

توقف مجلة كلمة حق

محمد إلهامي

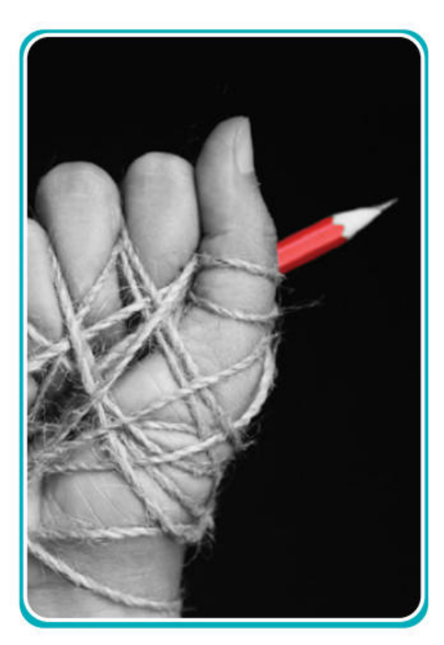
قد تمَّ فضل الله علينا، وأتمت مجلة "كلمة حق" ثلاث سنوات، في أيام حرجة من عمر الأمة الإسلامية، ومثل كل شيء له أول فلا بد أن يكون له آخر، فهذا العدد هو تمام السنوات الثلاث وهو كذلك العدد الذي ستتوقف بعده المجلة.



اخترنا اسم "كلمة حق" تيَمُّنًا بقول النبي صلى الله عليه وسلم "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، وقد رأينا من واقعنا أن الناطقين بكلمة الحق نـدرة، وأن كلمة الحق قد وُضِعت دونها السقوف والخطوط الحمراء الموضوعة للقنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية بما فيها تلك التي ترفع الثورة والإسلام شعارا لها، فخطرت لنا فكرة المجلة حتى يسَّر الله فتحققت.

وقد وصلت كلمة حق إلى السلطان الجائر فبدأ الهجوم عليها منذ اليوم الأول في صحافة وإعلام دول محور الشر العربي، وزعموا أنها مؤامرة كبيرة وأنه قد رُصِد لها تمويل ضخم، وما كانت المجلة سوى ثلاثة أفراد وكُتَّابُ تطوعوا فأنفقوا وقتهم وجهدهم وكتبوا، ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء الأجر عند الله!

"وقد دهشنا نحن أنفسنا لما وصلت إليه المجلة في القلوب والأسماع، في شرق العالم الإسلامي وغربه، مما لم نكن نتصور مجرد تصور أنه قد نصل إليه، مع ضعف الحال والإمكانيات من جهة، ومع ثِقَل المادة ورصانتها من جهة أخرى، فلم نكن نقدم ترفيها ولا مادة جذَّابة بمعيار الجمهور ولا ابتغاء تحقيق الجماهيرية. ثم قد وجدنا من ردّة فعل أنظمة الشر العربي ما لفت أنظارنا إلى أن هذا الصوت الضعيف المبحوح الشارد في جنبات مواقع التواصل الاجتماعي إنما هو صوت مسموع، وأنه يؤرقهم، وإننا لنبتغي عند الله الأجر في إغاظة هؤلاء."



وقد تكاثرت الحملات الإعلامية، وتكاثر تسليط البلاغات على حسابات المجلة على المواقع المختلفة، فأغلق الموقع الأساسي للمجلة بعد بضعة

أعداد، وأغلق لها بعض الحسابات على عدد من المواقع، وازدادت وتيرة حذف المقالات، وكنا في كل مرة نسلك سبيل البدائل ونحاول استدراك ما فات، والنهوض من جديد بوسائل أخرى وعلى نوافذ أخرى في ظل ما هو متاح، حتى كان هذا الشهر الماضي إذ تمَّ إغلاق صفحة المجلة على الفيس بوك. وستبقى مشكلة مطاردة صوت الإسلام الثوري المقاوِم طالما بقيت النوافذ المتاحة رهينة بمزاج السيد الغربي المتفوق، فهذه مشكلة تتعلق بموازين القوى والهيمنة، وهي مشكلة حضارية كبرى.



"ونحسب أننا في هذه السنوات الثلاث قدَّمنا -أو على الأقل: دعمنا- خطابا كان مفقودا في عموم الساحة الثورية، خطابٌ كله تكاليف ومغارم، وما لنا رجاءُ إلا أن يتقبله الله فيجعله خالصا لوجهه الكريم، فلئن كان قد تقبله الله فكل ما سوى ذلك هين."

وإذا كان لنا من رجاء نقدمه للقارئ الكريم، فهو أن يحتفظ بأعداد هذه المجلة وينشرها ما وسعه ذلك، فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، والدالّ على الخير كفاعله، عسى الله أن يجعل ذلك كله في ميزان حسناته.

يمكن الوصول إلى جميع أعداد المجلة من هنا:

https://archive.org/details/klmtuhaqy1

ويمكن الوصول إلى جميع الهدايا التي كانت ترافق أعداد المجلة، والتي هي مختصر كتب رأينا أنها مفيدة ونافعة من هنا: https://archive.org/details/klmtgift

ويمكن الوصول إلى الأعداد وهداياها، وتحميلها مباشرة، عبر قناة "أرشيف مجلة كلمة حق" على تليجرام: https://t.me/klmtu

كذلك يمكن البحث عن المقالات المنشورة في المجلة من خلال:

قناة التليجرام https://t.me/klmtuhaq

أو حساب تويتر https://twitter.com/klmtuhaq

وفي حال كان المقال المنشور محذوفا فيمكن الوصول إليه عبر هذه الطريقة التي يشرحها الفيديو على هذا الرابط: https://archive.org/details/klmtremov

وقد أعددنا هذا الرابط، وهو ملف صفحة ويب بسيط، وعليه معظم المقالات المنشورة في أعداد المجلة، ويمكنك من خلاله البحث عن الكلمة التي ترغب، كما هو الحال في أي صفحة انترنت:

https://ia801505.us.archive.org/23/items/posts_1/posts_1.html

وبعد هذا كله، فإذا رغب القارئ في الوصول إلى شيء لم يستطع العثور عليه، فيمكنه أن يراسلنا عبر الصفحة البديلة للمجلة على الفيس بوك:

http://fb.com/Klmtuhaq2

ولعل القارئ الكريم لا ينسانا من دعوة خالصة بظهر الغيب، ولعله إن شاء الله لا يكون آخر اللقاء بكم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الردُّ على علماء السوء والسلطة في موضوع "فقه التغلب"

عبد الله الصعيدي

تُعدُّ نظرية التغلب من المخارج التي تَعلَّلَ بها وُعاظ السلاطين في شَرْعَنَة ممالِكِ النار والحديد، فوَسَّعوا العبارةَ وزخـرفـوا القولَ في تكييفِ الواقع الممسوخ، واستلْحَقُوهُ بِشُذُورٍ تاريخية لا تُناظِر أيامَنَا ولا تُشبِهُ زمانَنَا؛ على عُجَرها وبُجَرها؛ إلا في ركوب الأَسِنَّة وانـتـهـابِ الأمـصـار بمقاليد الصوارم. وكَلَّ فقهاءُ القُعُود في جمْعِ القمامة من كُتُب التاريخ تسويغاً لأطماع أمراء التجزئة، بعدما أَعـجَـزَهُـمُ البرهانُ الشرعي المعصوم.



والحقُّ أنَّ التغلُّبَ المنصوصَ في المدَوَّنةِ التراثية؛ والذي تبايَنتْ فيه أنظارُ النُّظَّار؛ ليس ذاتَ التغلُّبِ الذي يُدَندِنُ حوله مَن زُيِّن له الظلمُ وجُعِلت قُرَّةُ عينه فيه؛ لا مِن قبيل الأصل، ولا على سبيل الوصف.

أولاً: من جهة الأصل؛ فإنَّ من دلائل بطلان الركون إلى فقه التغلب واعتباره أصلاً يُفزَع إليه ويُستدلُّ له من قواطع القرآن وجوازم السنن، أن الكتاب الكريم أو السنة الصحيحة تنشأ أَبْنِيَتُها الدِّلالية في تشريع الأحكام على دَيْمُومة الحُكم واتصالِ أثره ما تعاقَبَ الليل والنهار[١]، وصُوَر التغلُّبِ نماذجُ عارضةٌ تَنبثقُ عن واقعٍ ظرفيٍّ آنِيٍّ أَفْرَزَتْهُ ضرورةُ الوقت، فليس من الفِقه إقحامُ أعيانِ الأفعال ضمن النصوص الحاضَّة على السمع والطاعة، واسْتِنزالُ دلائل بيعة الاختيار على مَضايِقِ بيعةِ الاضطرار. فمتى انقشعت الضرورة القائمة انقلبَ الحكم إلى أصله من الحرمة والحظر، ولا يُعدَّى حدُّ الاضطرار إلى حدِّ الاختيار. وذاك شأنُ قَهْرِ الأمَّة بالسيف والنَّزْوِ على مفاصِلِ السلطة والتدبير، ظُلمٌ لا سبيل إلى إباحته حاشاَ ما كان مِن ضرورة. قال ابن الوزير: "الشرعُ وَرَد بأنَّ الولايةَ للإمام العادل، فحين تَعَذَّرَ الشرطُ المشروعُ لم يَجِبْ علينا أنْ نفعَلَ ما يُشبِهُهُ في الصورة... وأمَّا المتغلِّبُ من الابتداء، فيَحتاج مَن يَقُول بولايته إلى دليلٍ على ذلك"[٢].

كما أن اعتبارَ التغلُّب مِن صُوَر الولايات المشروعة، وإلحاقَ أصلِه بصورَتَيِ العَهْدِ والاستخلاف؛ القائمتين على اختيار أولي الحلِّ والعقد؛ حافِزٌ مفضٍ إلى تشوُّفِ النفوس إلى الثوران والمخالفة، فينجُمُ عنه تَوارُد احتمالات الاحتراب مع السلطان طلباً للرياسة والملك، إذْ في إقرار سلطة التغلب وإخراجِها عن مَكارِهِ الضرورات التي تبيح المحظورات، إقرارٌ ضِمنيٌّ للصولة على ذِي السلطان القائم، فيَتَسَلْسَلُ الشقاق وتتواتر المنازعة ويبقى الناسُ عبيدَ مَن غَلَب، ولا يخفى ما لإباحة التهارش على الرياسة مِن توغُّل الأمة في أزَماتٍ عَضُوضٍ وشدائدَ ثِقَال. قال الإمام الرافعي: "لا يجوز خلعُ الإمام بلا سبب، ولو خلعوه لم يَنْفُذْ؛ لأن الآراء تتغيَّر، ولو نفَّذناه لم نأمَنْ تَكرُّر التولية والعزلِ، وفي ذلك سقوطُ الهيبة"[٣].

---

(١) قال الإمام الشاطبي: "الشرعُ موضوعُ على أنه دائمُ أبديٌّ، لو فُرِض بقاءُ الدنيا من غير نهاية". وقال: "جميع الأحكام لا زوال لها ولا تَبدُّل، ولو فُرض بقاء التكليف إلى غير نهاية". الموافقات، ط1 دار ابن عفان، (١/١١٠).

(٢) العواصم والقواصم، ط1 مؤسسة الرسالة، (٨/١٨١).

(٣) الشرح الكبير، ط1 دار الكتب العلمية، (١١/٧٦).



●● وقال العلامة زكريا الأنصاري: "وإنْ خُلعَ الإمامُ بأن خَلَعَه غيرُه؛ وليس بجائزٍ بغير سببٍ؛ لم ينخلع، إذ لو انخَلَع لم يُؤمَنْ تَكرُّرُ التولية والانخلاع، وفي ذلك سُقوط الهيبة"(٤).

فَمَا التغلُّبُ إلا مِن ذرائع السقوط وبواعث الخَوَر، وهذه الأندلس؛ لما ساد فيها إمضاءُ إمارة السيف تشرذَمَتْ وذَهَب ريحُها وصارتْ أثَراً بعد عين، وطالِعْ أحوالَ الأمصار الحديثة التي ساسَتْها أَسِنَّةُ التغلُّبِ وتعاقَبَ على حُكمها ذَوُو الشوكة مِن أجلاف العساكر وسماسرة الحروب؛ كدول إفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ لَهِي أَبعدُ الدُّوَل عن الاستقرار والنهضةِ وانتظامِ مسالكِ التحضُّر فيها.

وقد نَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن استشرافِ الإمـارة وطَلَبِ المنصِب، وقَضَى بأنَّ مَنِ اشْرَأَبَّتْ نفسُه إلى الولاية ثمَّ نَالَها، وُكِلَ إليها ولم يُعَنْ، قال القاضي عياض: "وذلك في الغالب مَقرونٌ بالخذلان"(٥). وقال ابن الملقن: "ومَن وُكِلَ إلى نفسه هَلَك"(٦). كما أنَّ سؤالَ الإمارةِ باعِثٌ على توارُدِ التهمة والتَّوَجُّس، ولا ريبَ أنَّ توليةَ مخذولٍ أو تأميرَ مَتْهُومٍ، آيِلٌ إلى انتقاضِ المصلحة وفسادِ التدبير، هذا ما لا يَضيقُ عنه الرأي.

---

(٤) أسنى المطالب، ط دار الكتاب الإسلامي، (٤/١١٠).

(٥) إكمال المعلم، ط1 دار الوفاء، (٦/٢٢٢).

(٦) التوضيح، ط1 دار النوادر، (٣٢/٤٤٣).

ثم إنَّ مبحَثَ التغلُّب مبحَثٌ عميقُ الأثر وَسيعُ الخَطَر، لما ينجُمُ عن المسايَفَة على الملك من أَذَاياَ تأكُل العبادَ وتَهدمُ البلاد، وبعد التي واللُّتَيَّا لم يُنْقَل فيه شيءُ منصوصُ عن الله ورسوله! خلاَ لفظةُ يتيمةُ تعلَّق بها بعضُهم في قوله صلى الله عليه وسلم: "وإنْ تأمَّر عليكم عبدُ حَبَشيٌّ". فَحَمَلَه البعض على لزوم طاعة المتغلِّب، وهو مَحْمَلٌ مرجوحُ لمناقضته شرطَ الحرية المجمَعِ عليه، جُموداً على ظاهر لفظ "التَّأمُّر" الذي عَقَلوا منه التَّغلُّب، على نِزاعٍ في ثبوت اللفظ أصلاً[٧]، إذ الأسانيد الأصح والأصرح جاءت بألفاظ "التأمير" و"الاستعمال"[٨]، وهي أَمارَةُ على التولية والتنصيب، وليْسَا مِن علائم التغلُّب والقهر[٩]. لذلك استدلَّ جمهور الفقهاء بالحديث على صحة إمامة العبد في الصلاة؛ وهي فرعُ عن التوليةِ والتنصيب من الإمام الأعظم الذي هو الخليفة[١٠]. ويَعتَضِدُ هذا المعنى برواية الحاكم في المستدرك بسندٍ صحيح، من حديث عليٍّ رضي الله عنه: "وإنْ أَمَّرَتْ عليكم قريشٌ عبداً حبشياً مجدَّعاً، فاسمعوا له وأطيعوا"[١١].

•• قال الإمام الماوَردي: "وأَمَّا إمارةُ الاستيلاء التي تُعقد عن اضطرارٍ؛ فهي أن يستوليَ الأميرُ بالقوة على بلادٍ يُقلِّدُه الخليفةُ إمارَتَها؛ ويُفوِّضُ إليه تدبيرَها وسياستَها؛ فيكون الأميرُ باستيلائه مُستبِدًّا بالسياسةِ والتدبير، والخليفةُ بإذنه مُنْفِذًا لأحكام الدين... ليَخرُجَ مِن الفساد إلى الصحة، ومن الحظر إلى الإباحة"[١٢].

وقال الكاساني: "لأنَّه نائبُ الإمام، وطاعةُ الإمام لازمةُ، كذا طاعته؛ لأنها طاعةُ للإمام"[١٣].

---

(٧) إرواء الغليل، ط٢ المكتب الإسلامي، (٨/١٠٩/ح٢٤٥٥).

(٨) البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، (٩/٦٢/٧١٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، (٣/١٤٦٨/ح١٨٣٨)؛ مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، (٢/٩٤٤/ح١٢٩٨).

(٩) وعلى هذا الوجه مَضَتْ محاملُ الفقهاء في فَهْمِ الحديث والعمل به، انظر: بدائع الصنائع، ط2 دار الكتب العلمية، (٧/٩٩). شرح الزركشي على الخرقي، ط1 مكتبة العبيكان، (٧/٢٣٧)، أسنى المطالب، ط1 دار الكتب العلمية، (٤/١٠٩)، مغني المحتاج، ط1 دار الكتب، (٥/٤١٨)، شرح المنتهى للبهوتي، ط1 عالم الكتب، (١/٤٥٤)، حاشية عميرة، ط مكتب البحوث، (٤/٧١٤)، نيل المآرب، ط1 مكتبة الفلاح، (٢/٥٨٢)، مطالب أولي النهى، ط٢ المكتب الإسلامي، (٢/١٣٨)، منار السبيل، ط٧ المكتب الإسلامي، (٢/٣٩٩)، الموسوعة الفقهية الكويتية، ط2 دار السلاسل، (٢٣/٨١).

(١٠) انظر: الشرح الكبير، ط دار الفكر، (٤/٣٢٨)، البيان للعمراني، ط1 دار المنهاج، (٢/٤٢٠)، شرح التلقين، ط1 دار الغرب، (١/٦٧٣)، بدائع الصنائع، ط2 دار الكتب، (١/٦٦٢)، العناية شرح الهداية، ط دار الفكر، (١/٣٥٠)، شرح صحيح البخاري لابن بطال، ط2 مكتبة الرشد، (٨/٢١٥)، العواصم والقواصم لابن الوزير، ط1 مؤسسة الرسالة، (٨/١٨١).

(١١) المستدرك، كتاب: معرفة الصحابة، ذكر فضائل قريش، (٤/٨٥/ح٦٩٦٢)، وجوَّده الطيبي في شرح المشكاة، (١/٢٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١/٥٣٤/ح٢٧٥٧).

(١٢) الأحكام السلطانية، ط دار الحديث، (ص٦٦).

(١٣) بدائع الصنائع، ط2 دار الكتب العلمية، (٧/٩٩).



ولو سلَّمنا جَوَازَ إيحاءِ اللفظ ووشايتِهِ بمعنى التغلُّب، فالتَّأَمُّر المذكور جارٍ في سياق الشرطية التي لا يلزم وقوعها، فـحرفُ الشرط "إنْ" هنا، دَالٌّ على التقدير لا على الحقيقة، وإنما غايته تمكين فقه الطاعة في مدارك العروبة المتأَبِّيَة على مفهوم الانقياد والخضوع، وقد سلَفَ القول فيه. قال الطيبي: "قيل: معناه؛ وإنِ استَعْمَلَه الإمامُ الأعظم على القوم... وقيل: المراد به الإمامُ الأعظمُ على سبيل الفرض والتقدير، وهو مبالغةُ في الأمرِ بطاعته والنهيِ عن شِقاقِهِ"(١٤).

●● وقد سِيقَ الحديث بصيغة الشرط؛ والشرطُ لا يَلزَم وُقُوعُه؛ لتعزيز النظر فيما أُقيمتِ الإمامةُ لأجله؛ وهو إقامة الشرع الإلهي؛ وتجاوُزُ الخلافات البَيْنِيَّةِ الناشئة عن الصراع على النَّسبِ أو العِرقِ أو اللَّون، فكان قوله عليه السلام: "يقودُكُم بكتاب الله" عمودَ السارية ومحَكَّ الأمر.

ثمَّ إنَّ مَن أَدار فِقهَ الحديث على التغلُّب المسلَّح، آلَ قولُه إلى اعتبار الظرف القائم ظرفاً ضرورياً، ووَصَم فاعلَ ذلك بالخروج، قال الخطابي: "وفيه من الفِقه أنه رأى دفع الصدقات إلى الخارجي المتغلب إذا تأمَّر على الناس"(١٥).

---

(١٤) شرح المشكاة، ط1 مكتبة نزار مصطفى، (٢٥٥٨/٨).

(١٥) غريب الحديث، ط دار الفكر، (٤٤٧/٢).

ومِن براهين فساد الحَمْل على استباحة التغلُّب، المخْرَجُ الذي نصَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عُضُّوا عليها بالنواجذ". والمنهج النبويُّ وما استتبعه من حواشي التجربة الراشدية، معزولُ عن شهوة الغَضْب ونَهْمَة الغَلَب قولاً وفِعلاً، إذْ ما نزلتْ نوازلُ القهر إلا بعدهم، وما كان ذلك مِن سَنَنِهم. قال الحافظ ابن رجب: "السُّنة: هي الطريقة المسلوكةُ، فيشمَلُ ذلك التمسُّكَ بما كان عليه هو وخلفاؤه الرَّاشدونَ مِنَ الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السُّنةُ الكاملةُ... وفي ذِكر هذا الكلام بعد الأمر بالسَّمع والطَّاعة لأُولي الأمر، إشارةُ إلى أنَّه لا طاعةَ لأُولي الأمر إلاَّ في طاعة الله"[١٦].

●● ومن شواهِدِ إبطالِ شرعَنَة التغلُّبِ وتصحيحِ إمامةِ القهر، أنَّ المتغلِّبَ فاسِقُ عن أمر ربِّه، مخرومُ العدالة، وقد قَطَعَ كثيرُ من أهل العلم بأنَّ إمامة الفاسِق لا تَنْفُذُ ابتداءً، قال القاضي عياض: "ولا تنعقد لفاسقٍ ابتداءً"[١٧].

وقال القرطبي: "ولا خلافَ بين الأمَّة أنه لا يَجوزُ أنْ تُعقَدَ الإمامةُ لفاسقٍ"[١٨].

ولا يُقال هنا: إنَّ فِسقَه مِن جَرَّاء التغلُّب لنفسه ورياستَه للمسلمين، لأنَّ الجَوْرَ الناشِئَ عن الوثوب على الحُكم مُتَناوِلُ لعموم الرعية، لما تضَمَّنَه مِن مصادرة حقِّهم في بيعةِ المشورة والاختيار، بل إنَّ عَقْدَ الإمامةِ لفاسِقٍ أَهْونُ من سُلطةِ القهر، لأنَّ الفُسوقَ قد يَقْصُرُ أثرُهُ على شخْصِ السلطان، لكنْ يَحولُ دونَ انعقاد إمامته حقُّ الله جلَّ اسمُهُ، وإنِ ارتضاهُ الناس، أمَّا صورةُ التغلُّب فيتداخَلُ فيها الحَقَّان؛ حقُّ الخالق وحقُّ المخلوق؛ فتكونُ أَثبَتَ مَنْعاً وآكَدَ حرمةً. ومما يزيدُ حُكمَ التَّغلُّبِ جلاءً؛ أنَّ فقهاءَ المِلَّةِ أجازوا إمامةَ الفاسِقِ إذا كان فِسقُهُ طارئًا على عدالته، وأنفَذُوها استدامةً لا ابتداءً، لِما ينجُمُ عن الشِّقاق والمنازَعَة مِن فَسادِ العَيشِ وذهابِ الريح، فكان التَّركُ أَخلَصَ من الهُلك، وهذا بالاضطرار أَشبَهَ منه بالاختيار فتأمَّل.

---

(١٦) جامع العلوم والحكم، ط٧ مؤسسة الرسالة، (١٢٠/٢).

(١٧) انظر: شرح النووي على مسلم، ط٢ دار إحياء التراث، (٣١٤/٦).

(١٨) الجامع لأحكام القرآن، ط2 دار الكتب المصرية، (٢٧٠/١).

التغلب عصيانُ صريحُ يقتضي المآخَذَةَ والتفسيق: إليك شُذوراً من أقاويل أئمة الدِّين وفقهاء الملَّة في تحريم التغلُّب وتجريم فاعله:

قال ابن حزم: "فَصَحَّ أنَّ المنازِعِين في الملك والرياسة مُريدُون تفريقَ جماعة هذه الأمة، وأنهم منازِعُون أهلَ الأمر أمرَهُم، فهم عُصاةُ بكل ذلك. فصحَّ أنَّ أهلَ البغيِ عُصاةُ في منازَعَتِهِمُ الإمامَ الواجبَ الطاعة، وإذْ هم فيه عصاةُ؛ فكُلُّ حُكم حَكَمُوه مما هو إلى إمامٍ، وكلُّ زكاةٍ قَبَضُوها مما قَبْضُها إلى الإمام، وكل حَدٍّ أقاموه مما إقامته إلى الإمام، فكُلُّ ذلك منهم ظلمُ وعدوان. ومِن الباطل أن تَنُوَب معصيةُ الله تعالى عن طاعته، وأن يُجْزِيَ الظلمُ عن العدل، وأن يقومَ الباطلُ مقامَ الحق، وأن يُغْنِيَ العدوانُ عن الإنصاف"[١٩].



وقال الإمام الجويني: "ولا يجوز عَقْدُ الإمامة لفاسقٍ، وإن كانت ثورته لحاجةٍ ثم زالت وحالت، فاستمسَكَ بِعُدَّتِه محاولاً حمل أهل الحل والعقد على بيعته، فهذا أيضاً من المطاولة والمصاولة، وحملِ أهل الاختيار على العقد له بحكم الاضطرار، وهذا ظلمُ وغَشْمُ يقتضي التفسيق، فإذا تَصوَّرْتَ الحالةَ بهذه الصورة، لم يَجُزْ أن يُبَايَع"[٢٠].

(١٩) المحلى، ط دار الفكر، (٣٥٤/١١).

(٢٠) غياث الأمم، ط2 مكتبة إمام الحرمين، (ص٣٢٧).

وقال البغوي: "مَن ظَهَر بشوكته وقُوَّتِه، وقَهَر العبادَ بالسيف وتَسَلَّط عليهم، كان والياً؛ عَربيًّا كان أو عَجَميًّا؛ وإن كان عاصِيًّا بالقهر"[٢١].

وقال الإمام النووي: "إذا مات الإمامُ فتَصَدَّى للإمامة مَن جَمَع شرائطها مِن غير استخلافٍ ولا بيعة، وقَهَر الناسَ بشوكته وجنوده، انعقدَتْ خلافته لينتظم شملُ المسلمين... وإن كان عاصياً بِفِعْلِه"[٢٢].

وقال الإمام الرافعي: "إذا ماتَ الإمامُ فتصدَّى للإمامة مَنْ يستجمع شرائطَها مِن غير استخلافٍ وبَيْعَةٍ، وقَهَر الناس بشَوْكته وجُنودِه، انعقدتِ الخلافةُ لانقياد الناس وانتِظام الشَّمْل... إلا أنه عاصِياً بما فعل"[٢٣].

وقال ابن حجر الهيتمي: "المتغلب فاسقُ معاقَبُ لا يستحق أن يُبشَّر ولا يُؤمَرَ بالإحسان فيما تَغَلَّب عليه، بل إنما يَستحق الزجرَ والمقْتَ والإعلامَ بقبيح أفعاله وفساد أحواله"[٢٤].

وقال ابن الوزير: "إذا تَغَلَّبَ وصار إماماً بالسيف، فإنه عاصٍ لله تعالى"[٢٥].

نُقولُ عن أئمة العلم في اعتبار التغلُّب ضرورةً:

قال الإمام المـاوَردي: "وأما إمـارةُ الاستيلاء التي تُعقد عن اضطرارٍ؛ فهي أن يستوليَ الأميرُ بالقوة على بلادٍ يُقلِّدُهُ الخليفةُ إمارَتَها... فجازَ فيه مع الاستيلاء والاضطرار، ما امتَنَع في تقليد الاستكفاء والاختيار، لوقوع الفَرق بين شروط الْمُكْنَة والعجز"[٢٦].

---

(٢١) التهذيب في فقه الإمام الشافعي، ط١ دار الكتب العلمية، (٧/٢٦٩).

(٢٢) روضة الطالبين، ط٣ المكتب الإسلامي، (١٠/٤٦).

(٢٣) الشرح الكبير، ط1 دار الكتب العلمية، (١١/٥٧)، وانظر: شرح المقاصد، (٥/٢٣٣).

(٢٤) الصواعق المحرقة، ط1 مؤسسة الرسالة، (٢/٦٢٧).

(٢٥) العواصم والقواصم، ط1 مؤسسة الرسالة، (٨/١٦٣).

(٢٦) الأحكام السلطانية، ط دار الحديث، (ص٦٦).

قال الإمام الغزالي: "لو تَعَذَّر وجودُ الـورَعِ والعِلم فيمن يتصَدَّى للإمامة، وكان في صَرفِهِ إثارةُ فتنةٍ لا تُطاق، حَكَمْنا بانعقاد إمامته؛ لأننا بين أن نحرِّك فتنةً بالاستبدال، فما يلقى المسلمون منه من الضرر يَزيدُ على ما يَفُوتُهم مِن نقصان هذه الشروط التي أثبتت المزيَّةُ المصلحةَ، فلا يُهدم أصل المصلحة شغفًا بمزاياها... ونحن نَقْضِي بنفوذ قضاء أهلِ البغي في بلادهم؛ لِمَسِيسِ حاجتهم، فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة"[٢٧]؟

وقال ابن العربي: "قال مالك: إذا بُويع للإمام فقامَ عليه إخوانُه، قُوتِلوا إذا كان الأول عدلاً، فأماً هؤلاء فلا بيعةَ لهم إذا كان بُويِع لهم على الخوف"[٢٨].

وقال ابن القاسم: "وسُئل مالك: إذا بايَعَ الناسُ رجلاً بالإمارة، ثم قام رجلٌ آخر ودعا الناسَ إلى البيعة، فبايَعَه بعضُهُم؟ فقال: قد روى معاويةُ أن المبايِعَ الثاني يُقتل؛ وهذا عندي إذا كان الأَوَّل عدلاً، وأما إن كان مثلَ هؤلاء فليس له بيعةُ إذا كانت بيعته على الخوف، والبيعة للثاني إذا كان عدلاً، وإلا فلا بيعةَ لهما تلزم"[٢٩].

ورَوَى الإمام الطبري عن سعيد بن عبد الحميد بن جعفر قال: أخبرني غير واحدٍ أن مالك ابن أنس استُفتِيَ في الخروج مع محمد - هو محمد بن الحنفية النفس الزكية- وقيل له: إنَّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر؟ فقال: إنما بايَعْتُم مُكْرَهين، وليس على مُكْرَهٍ يمينُ، فأسْرَعَ الناس إلى محمد، ولزِم مالكُ بيته"[٣٠].

وقال السعد التفتازاني: "وأما عند العجز والاضطرار، واستيلاءِ الظلمة والكفار والفجار، وتسلُّطِ الجبابرة الأشرار، فقد صارت الرئاسةُ الدنيوية تغلُّبِيةً، وبُنِيَتْ عليها الأحكامُ الدِّينية المنوطة بالإمام ضرورةً، ولم يُعْبَأْ بعدم العلم والعدالة

---

(٢٧) الإحياء، ط دار المعرفة، (١/١١٥).

(٢٨) أحكام القرآن، ط1 دار الكتب العلمية، (٤/١٥٤).

(٢٩) الجامع لمسائل المدونة، ط1 دار الفكر، (٦/٢٣٩)، مختصر ابن عرفة، ط1 مؤسسة خلف الخبتور، (٣/١٧٥).

(٣٠) تاريخ الطبري، **ط٢** دار التراث، (٧/٥٦٠).

وسائر الشرائط، والضروراتُ تُبيح المحظورات، وإلى الله المشتكى في النائبات، وهو المرتَجَى لكشف الملمات"(٣١).

وقال ابن الوزير: "الفقهاءُ قد أطلَقُوا القولَ بانعقاد إمامةِ المتغلِّبِ للضرورة، والذي لا يَتأمَّل كلامَهُم يُنكِرُه لظنِّه أنَّ مرادَهُم أنه إمامُ على الحقيقة، وإنما أرادوا جوازَ أخْذِ الوِلاية منهم لتنفيذ الأحكام المتعلقة بالمصالح العامة، لاضطرارِ المسلمين إلى ذلك"(٣٢).

قال الخَيْرَبَرْتي: "وأما لو استولى مُستعد لَهُ شَوْكَة على خطة الْإِسْـلام، فَلَا تثبت لَهُ الْإِمَامَة عِنْد أهل السّنة وَالْجَمَاعَة عِنْد عدم الشَّرَائِط الْمَذْكُورَة فِيهِ، لَكِن الطَّاعَة وَاجِبَة عَلَيْهِ دفعاً للفتنة"(٣٣).



وقال ابن عابدين: "وتصحُّ سَلْطنة متغلِّبٍ للضرورة، لكنْ في الظاهر لا حقيقةً"(٣٤). بمعنى أنها مَجَازٌ مُجانِبٌ لحقيقة الإمامة التي تقوم على بيعةِ المشورة والاختيار.

---

(٣١) شرح المقاصد.

(٣٢) العواصم والقواصم، ط1 مؤسسة الرسالة.

(٣٣) الدرة الغراء، ط مكتبة نزار مصطفى الباز، (ص٧٣١).

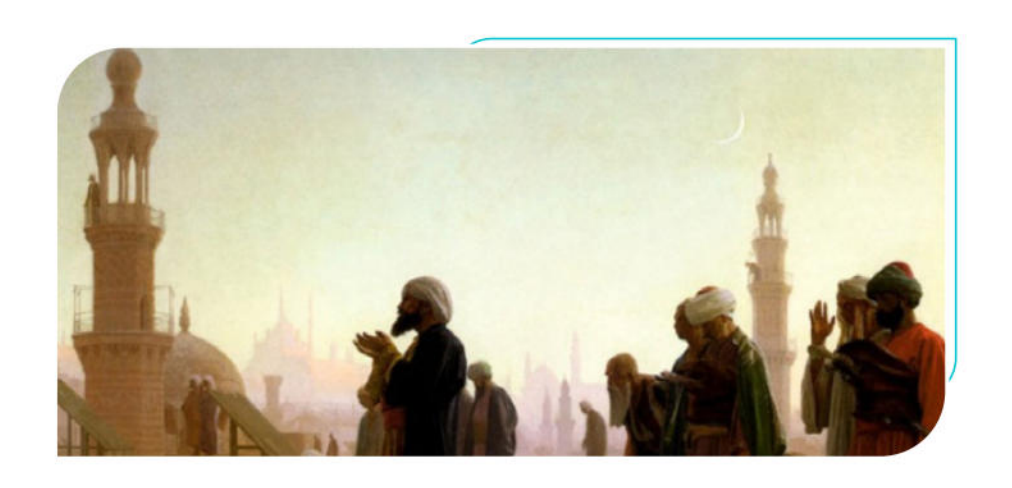
(٣٤) رد المحتار، ط2 دار الفكر، (١/٥٤٩).

متى تقرَّر أنَّ إمضاء إمامةِ التغلُّبِ مطلبُ ضروريُّ أَلحَّ على اعتباره دَفْعُ مناشئ التحرُّج، التي قد تنجُمُ عن تعطيلِ شُؤون الرعية وإقصاءِ عموم مصالحهم عن الصحة والنَّفاذ، فضلاً عما قد ينبثقُ عن الممانعة والمدافعة من بَلاياَ مزحومةٍ بالخرائب والأشلاء؛ وهذا حَقٌّ من الحقِّ؛ بَيْد أنَّ فِقهَ الاضطرار يُحَتِّمُ تحجيمَ مَورِد الضرورة لا انبِساطَها، إلى حدِّ عَدِّها أصلاً محفوظاً في طرائِقِ السياسة ومناهِج الحكم! إذِ الضرورةُ حالةُ عارضةُ تُناقِضُ العادةَ الجاريةَ والاطراد المعهود، لذلك أناطوا الترخُّصَ بخصوص الظرف ومناط الإلجاء، ثمَّ فَرَّعوا على ذلك لُزومَ السعي في طَرْحِ عوارِضِ الاضطرار، ومفارَقَة الوصفِ الطارئِ الذي دار عليه اقتحامُ الحظْرِ وانتهاكُ الحُرمَة، وإلا لماَ كان لتحريم العَيْنِ أو الفِعل جدوى إذا انتَظَمَ عُمُومُها واطَّرَدَ البلاءُ بها اطِّراداً مُطلَقاً! بل الْمُلاحَظُ أنَّ التحريمَ في أصله استثناءُ من الإذن العامّ، والترخيصَ فيه استثناءُ من الاستثناء، فهو خُصوصُ من خُصُوص، فَمَن أَقامَ على استباحة خبائِثِ الجِيَفِ ولَم يتطلَّعْ إلى تحصيل الحلال الطيِّب الذي تَنْدَفع به الضرورةُ الملجِئَة، أَثِم، لأنَّ تركَ السعْيِ مُشعِرُ بالتوسُّع والتأنُّس، وهما مُتَفرِّعان عن الإباحة والإذْن لا عن التحريم والمنع. قال الشيخ محمد رشيد رضا: "سلطةُ التغلُّب كأكل الميتة ولحم الخنزير عند الضرورة، تَنفُذُ بالقهر وتكون أدنى من الفوضى، ومقتضاه أنه يجب السعيُ دائماً لإزالتها عند الإمكان، ولا يجوزُ أن تُوَطَّنَ الأنفسُ على دوامها، ولا أن تُجعَلَ كالكُرَة بين المتغلِّبين يتقاذَفُونها ويتلقَّوْنَها، كما فَعَلَت الأممُ التي كانت مظلومةً وراضيةً بالظلم لجهلها بقوَّتها الكامنة فيها، وكون قوة ملوكها وأمرائها منها، ألم تر إلى من استناروا بالعلم الاجتماعي منها كيف هَبُّوا لإسقاط حكوماتها الجائرة وملوكها المستبدين..."[٣٥].

●● إنَّ الجَهرَ بلزوم تحريكِ المساعي للانعِتاقِ من رِقِّ الوصاية الغربية، هو الْمَحَكُّ الذي يَتَجَرَّدُ فيه الموقفُ العَقَديُّ مِن لُصوص الحُكم وسُرَّاقِ الشعوب، فَمَن تَأَنَّسَ بالصفة القائمة وكفَّ الجُهدَ عن إقامةِ البديل اللازِم، استبانَتْ لَنا دَخيلَةُ نفسِه وعُدَّ مُصَرِّحًا بِفِعالِه وإنْ تَكاتَمَ لسانُه وقَلَمُهُ.

---

(٣٥) الخلافة، ط الزهراء للنشر العربي، (ص٤٥).



●● وقد نَحاَ أئمة الشافعية مَنْحًى دقيقاً لماًّ اشتَرَطوا في إمضاء سلطة التغلُّب قَهْرَ المتغلِّبِ لمتغلِّبٍ آخَر، أو استيلاءَهُ على الحُكم حالَ وفاةِ الإمام وفراغِ السلطة. لأنَّ إمامةَ التغلُّب لديهم إمامةُ ضرورةٍ تزولُ بزوالها، ولأنَّ المتغلِّب الثاني مُغِيرُ على مُتغلِّبٍ قبله، فأشبَهَ وُثوبَ صائلٍ على مثلِهِ، ولئلاَّ يُهدَرَ حقُّ الأُمَّة في الاختيار والمبايَعَة، كانت الرياسةُ رياسَةَ غَلَبَةٍ وغصْبٍ واضطرار. لذلك لما طُلِبَ مِن ذِي النُّورَيْن رضي الله عنه عَزْلَ نفسِه والانخلاعَ من الخلافة، فقيل له: "اخلَعْ نفسَكَ مِن هذا الأمر"! قال: "لا أَخلَعُ قميصاً أَلْبَسَنِيهِ الله"[٣٦]. ومُرادُهُ بالقميص الخلافةُ التي بُويِعَ له بها، صيانةً لحقِّ الشورى وبيعةِ الرعية.

قال الشرواني في تعريف ولاية القَهْر: "استيلاءُ شخصٍ متغلِّبٍ على الإمامة، جامعٍ للشروط المعتبرة في الإمامة على الْمُلك بقهرٍ وغَلَبةٍ بعد موت الإمام لينتظم شملُ المسلمين. أما الاستيلاء على الحيِّ؛ فإنْ كان الحيُّ متغلِّباً انعقدتْ إمامة المتغلِّبِ عليه، وإن كان إماماً ببيعةٍ أو عهدٍ لم تنعقدْ إمامةُ المتغلِّب"[٣٧].

---

(٣٦) تاريخ المدينة، ط دار الفكر، (٤/١١٦١)، تاريخ الطبري، ط2 دار التراث، (٤/٣٧٥)، تجارب الأمم، ط٢، (١/٤٢٥).

(٣٧) مغني المحتاج، ط١ دار الكتب العلمية، (٥/٤٢٣).

أماَّ ما جاء عن الإمام أحمد في رواية عبدوس: "مَن غَلَبَ عليهم بالسيف حتى صار خليفةً، وسُمِّيَ أميرَ المؤمنين، فلا يَحِلُّ لأحدٍ يُؤمِن بالله واليوم الآخر أن يَبِيتَ ولا يراه إماماً"[٣٨]، فمعناه راجعُ إلى إمضاء الاعتدادِ بالتغلُّب متى أمضاهُ أهلُ الحلِّ والعقد. قال القاضي أبو يعلى: "يُحمَلُ ما قاله في رواية عَبْدُوس؛ على أنه إذا كان هناك عارضٌ يَمْنَعُ نَصْبَ العدلِ العالِمِ الفاضلِ، وهو أن تكون النفوسُ قد سَكَنَت إليهم، وكَلِمَتُهم عليه أجمعَتْ، وفي العدول عنهم يكثر الهرج"[٣٩]. فآلَتِ النازلةُ إلى اختيار نُوَّاب الأمة مِن أهل الحلِّ والعقد في تدبير الأمر، وموازَنةِ الواقعِ القائم بالمأمول القادم بعِيارِ القُدرة والْمُكْنَة. ويتعزَّزُ هذا المحمَل بما رواه الخلال عن الإمام أحمد أنه قال: "الإمامةُ لا تجوز إلا بشروطها... فإنْ شَهِد له بذلك أهلُ الحل والعقد من علماء المسلمين وثِقاتهم، أو أَخَذ هو بذلك لنفسه ثم رَضِيَهُ المسلمون، جاز له ذلك"[٤٠].

●● وقال في رواية إسحاق عنه: "تَدْري ما الإمام؟ الإمام الذي يُجْمِع المسلمون عليه، كُلُّهم يقول: هذا إمام، فهذا معناه"[٤١].

قلت: وسِرُّ الأمر ونُكتَةُ الفِقه فيه؛ أنَّ تَسليمَ العُدولِ وتَسْكينَ النفوس أَمَارَةُ الرِّضَى، فانْجَبَرَ الخللُ الحاصِلُ بالنَّزْوِ على العرشِ بوقوع التسليم بَعده. وهذا مُبْطِلُ للتغلُّب مُحبِطٌ له على الحقيقة، وإنما جَرى تَصحيحُ الفِعل باختيار المسلوبِ لا بِسَطوَةِ السَّالِبِ فتنبَّه. والنظرُ السياسيُّ المعاصِرُ لا يكادُ يَهضِمُ صورةَ التغلُّبِ التي يَعْقُبُها رِضَى الرعيَّة، وعِلَّةُ ذلك البَوْنُ الفسيحُ بين طبيعةِ المتغلِّبين قديماً وحديثاً، فالتغَلُّبُ التاريخيُّ تَنهَضُ به شَخصِيةُ ذاتُ حُضورٍ جماهيريٍّ وثِقَلٍ شعبِيٍّ، تَلُوحُ عليها مَخَايِلُ النَّجَابةِ، مع كِبَرِ النَّفْس والطيران الحَثِيثِ إلى عَوَالي المفاخِر، فكانَ أنْ تفرَّعَ على تصحيح التغلُّبِ العتيقِ القولُ بصحة الغزوِ مع المتغلِّبِ والصلاةِ خلْفَه ودفعِ الزكاة إليه... لأنه تغلُّبُ على منصِبِ الإمامة لا على الأُمَّة،

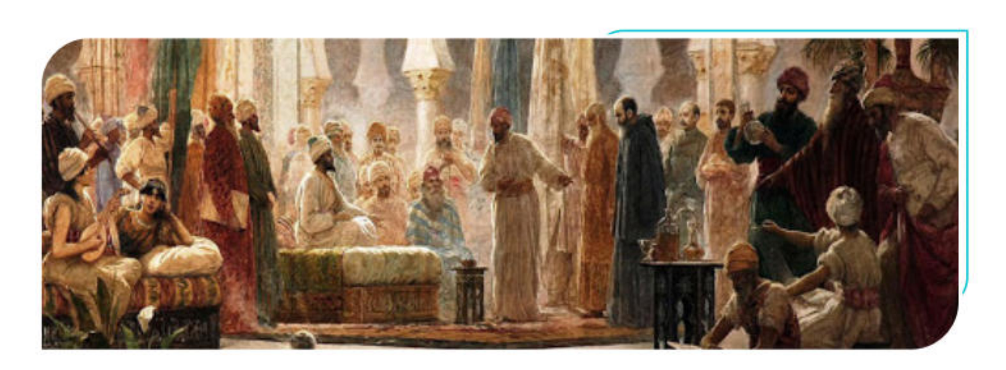
(٣٨) الأحكام السلطانية، **ط٢** دار الكتب العلمية، (**ص٢٠**)، وهو منصوصُ الشافعي أيضا: قال حرملة: «سمعتُ الشافعيَّ يقول: كُلُّ مَن غَلَب على الخلافة بالسيف حتى يُسمَّى خليفةً، ويُجمِعَ الناسُ عليه، فهو خليفةُ». آداب الشافعي ومناقبه، ط1 دار الكتب العلمية، (ص٢٢٢)، مناقب الشافعي للبيهقي، ط1 مكتبة دار التراث، (١/٤٤٨).

(٣٩) المرجع السابق، (ص٢٠).

(٤٠) العقيدة للخلال، ط١ دار قتيبة، (ص١٢٤).

(٤١) السنة للخلال، ط١ دار الراية، (١/٨٠).

ووُثُوبُ على العَرشِ لا على الشَّرْع. أمَّا الجنرالاتُ النابِتَةُ في الظلام، ذاتُ الأنسابِ الْمُبهَمَةِ والسِّيَرِ الْمُظلِمَة، فيَتَدَيَّكُون على شعوبهم ويَتَمَرَّغون في أَوْحَالِ الإمارة ظَهراً لِبَطن، لا تَخرُجُ بهم غارَةُ الغَضْبِ والغَلَبِ عن مُعافَسَة الأموال والنساء، الحَلاَلُ ما حَلَّ في أيدِيهِم، والحَرامُ ما حُرِمُوه، حياتُهم في مَوْتِ شعوبهم، وقُوَّتُهُم في ضَعفِ الرعية. لذلك لم تَتَّسِعْ مَدارِكُ كثيرٍ من المعاصرين لاستيعابِ تَصحيحِ سلطة القهر، ومما أعانَ على ذلك تَغَوُّلُ مفهوم الدَّولة الحديثة في الحقبة الراهنة، بينما كان محدودَ الأَثَرِ ضَيِّقَ المعنى في أَفْياءِ التاريخ. فكان لِزامًا أنْ تَفَرَّعَ عن النماذجِ المعاصرةِ أَقضِيةُ تُنْبِئُ بفداحة الخَطْبِ كالحكم بغير ما أنزل الله، والفرقِ بين التعطيل والتبديل، وحكمِ مُوالاة أئمة الكفر، وحُكمِ اغتيال المساعي الإصلاحية الطامِحة لإحياءِ مآثِرِ الأسلاف...



ثانيا: من جهة الوصف؛ مرادي بـ "الوصف" هنا المناطُ الذي دار عليه إقرارُ التغلُّبِ، وهو ما نَصُّوا عليه بقولهم: "تسكينُ الدهماء وحَقْنُ الدماء"، لأن إقامة الشريعة وظُهورَ الدِّينِ وحاكميةَ المصحف ثوابت كبرى فوق جَدَلِية التغلُّب القديم، أما حالةُ الجَبْرِ الراهنة فلا تتَطابقُ صُورَتُها العملية مع النموذج التاريخيِّ المحفوظ[٤٢]، لأنَّ صيغةَ التغلُّب التي تُضْفَى بها الشرعيةُ على اللُّصوص الجُدُد، صارتْ وسيلَةً لإبطالِ حاكمية الوحي وإزاحتِهِ عن سياسة شؤون المسلمين، وهذا مِن أَوسع الفروق بين سُلطةِ القهر التاريخيِّ، وبين السُّلطةِ المعاصرة، وعليه؛ فإلحاقُ التطبيق المعاصر بالنماذج القديمة مرفوضٌ لأنَّ مناطَ الحكم خارجَ مَحَلِّ الاستدلال.

---

(٤٢) على أن الرواية التاريخية ليست من مصادر التشريع، وإنما يُستأنَسُ بها ولا يُستَدَلُّ بها، لاسيما فيما استبانَتْ مُخالَفَتُه للنصوص.

وإذا ضاقَتْ روايةُ التاريخ عن مُواطَأةِ الواقع المعيش، امتَنَعَ الاستشهادُ العلميُّ من المدوَّنة السياسية الإسلامية؛ على صعيد الاستدلال المبدئيِّ من الوحي؛ وعلى صعيد الاستدلال التراثيِّ المسلول مِن مَلاحِمِ التاريخ. لأنَّ التغلُّبَ العتيقَ وإنِ اعتَوَرَهُ ظُلمٌ وفُسوقٌ، بَيْدَ أنه لم يَخرُج عن سيادة الشريعة والتحاكمِ إلى قِيَمِها ومجاهَدَةِ خصومها دَفعًا وطَلَباً. فمَن عَمِيَ عن الهُوَّة السحيقة بين الصُّورتَين لم يَحِلَّ له الكلام في دين الله تعالى، واستَحَقَّ العزلَ والحَجْر.

ومن المعاني العاصِمة من تجويز لَوثةِ التغلُّب؛ العبثُ السياسي الذي طَالَ هذه القضية، وتمَّ استِلحاقُ رياسةِ بعض الطواغيت كالقذافي وآلِ الأسد والسيسي... بإمامة آلِ مروان والعباسيين والعثمانيين؛ من خلال تصحيح سُلطة الغصب وإمارة السيف؛ ثُمَّ تُجهَضُ نظائرُ تلك الصُّور مع أنَّ القهرَ فيها صريحُ عُريان، لاضطرابِ المصلحةِ السياسية أو انقِباضِ المكسب الغربيِّ! وإلا فكيف يُعَدُّ السيسي متغلِّباً ولا نَحكُمُ بالتغلُّبِ لصدَّام الذي اكتسَح الكويت، وهَيْمَنَ عليها بقوة السلاح؟ فإن قيل: صَدَّام لم يكن كُوَيتيًّا مِن ذات البلَد، قلنا: وهل شَرَطَ الفقهاءُ وأئمةُ الدِّين التجانُسَ الجغرافيَّ في تصحيح التغلُّب؟ ثم هذا عبد الملك الحوثيّ غَلَبَ الناسَ في اليَمَن واستَتَبَّ له الحُكم؛ وهو يمانيٌّ من صميم الإقليم، لماذا لم يَعتَبِرهُ فقهاءُ المزاوِد مُتَغَلِّبًا؟ لكنهم يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحَرِّمونَه عاماً وفقَ هَوى السُّلطان وسلطانِ الهوى. فاقتضى قانون قَطْعِ الذرائع سَدَّ فجوة التغلُّب لإبطال حُكومات النار والحديد، وصيانَةِ الديانَةِ عن أَعابِيثِ لِئامِ الحُكَّام.

مناقشة الإجماع الذي نَقَلَه الإمام ابن بطال:

قال الإمامُ ابن بطال: "والفقهاءُ مُجْمِعُون على أنَّ طاعةَ المتغَلِّبِ واجبةُ؛ ما أقام على الجمعات والأعياد والجهاد، وأَنصَفَ المظلومَ في الأغلب، فإنَّ طاعَتَه خيرُ مِن الخروج عليه؛ لما في ذلك من تَسْكِينِ الدَّهْمَاء وحَقْنِ الدِّمَاء"[٤٣].

(٤٣) شرح صحيح البخاري، ط٢ مكتبة الرشد، (٣٢٨/٢).

الوجه الأول: الإجماعُ المذكور لا يَصِحُّ، فقد كثرت أقوال أهل العلم في إبطال إمامة القَهر، وقَدْحُها في استقامة الإجماع لائحُ واضحُ. ومِن أَمارات بُطلان دعوى الإجماع انعدامُ سَنَدِه النصِّيِّ وخُلُوُّ الأمرِ في الاستدلال له عن الآية والحديث، لأنَّ اعتبار الإجماع في مَهْيَع التشريع والاستدلال اعتبارُ تَبَعِيٌّ لا أصلِيٌّ، فافتَقَرَ إلى أُصول النُّقُول التي تُسْنِدُه[٤٤]. إذْ تشريعُ الأحكام لله وحده جلَّ وعلا، فاحتاجَ أهلُ الإجماعِ إلى سَنَدٍ نَصِّيٍّ لأنهم لا يُنشؤون الأحكام. ولا مُتَعَلَّقَ في نصوص الوحي لمن رَامَ ذلك؛ اللهمَّ إلا موارِد الاضطرار، ولا يَصلُحُ الركون إليها في تقرير شرعية التسلُّط، لأنَّ إمضاءَ إمامةِ القهرِ للضرورة يقتضي تحريمَها أصالَةً، وهذا مِن أظْهَرِ الفروق بين أحكام الرُّخَص وأحكام العزائم.

قال الماوردي في إمامة المتغلِّب: "واختَلَفَ أهل العلم في ثُبوت إمامته وانعقاد ولايته بغير عقدٍ ولا اختيارٍ؛ فذَهَب بعضُ فقهاء العراق إلى ثُبوت ولايته وانعقاد إمامته... وذَهَب جمهور الفقهاء والمتكلمين إلى أنَّ إمامَتَه لا تنعقد إلا بالرضا والاختيار"[٤٥].

وقال القاضي عياض: "لا يَجُوز الخروجُ على الإمام العدل باتفاقٍ، فإذا فَسَقَ وجارَ... وهذا في إمامٍ عُقِد له على وجهٍ يَصحُّ ثم فَسَق وجَارَ، وأما المتغلِّبون على البلاد فالكلام فيهم يَتَّسِع"[٤٦].

وقال الإمام زكريا الأنصاري: "وقال النووي في شرح مسلم؛ إنَّ الخروجَ عليهم حرامُ بإجماع المسلمين، وإن كانوا فَسَقةً ظالمين[٤٧]! ونُوزِعَ في دعوى الإجماع بخروج الحسين بن علي على يزيد بن معاوية، وابنِ الزبير على عبد الملك بن مروان، ومع كلٍّ منهما خلقُ كثيرُ من السلف، وأُجيبَ بأن مَحَلَّ الإجماعِ في الخروج عليهم بلا عُذرٍ ولا تأويل"[٤٨].

---

(٤٤) قال الآمدي: «اتَّفَق الكُلُّ على أنَّ الأُمَّةَ لا تجتمع على الحُكم إلا عن مَأْخَذٍ ومُستَنَدٍ يُوجِب اجتماعَها، خلافًا لطائفة شاذةٍ...». الإحكام، ط المكتب الإسلامي، (١/٢٦١). وقال شيخ الإسلام: «ما مِنْ حُكمٍ اجتمعتِ الأمةُ عليه إلا وقد دَلَّ عليه النص، فالإجماع دليلُ على نَصٍّ موجودٍ معلومٍ عند الأئمة، ليس مما دَرَسَ عِلمُه». منهاج السنة، ط1 جامعة الإمام، (٨/٣٤٤).

(٤٥) الأحكام السلطانية، ط دار الحديث، (ص٢٨).

(٤٦) إكمال المعلم، ط1 دار الوفاء، (٦/٢٤٦).

(٤٧) انظر: شرح النووي على مسلم، **ط٢** دار إحياء التراث، (١٢/٢٢٩).

(٤٨) أسنى المطالب، ط دار الكتاب الإسلامي، (٤/١١١).



وقال القلقشندي: "مِن الطُّرُق الَّتِي تَنْعَقِد بهَا الْإِمَامَة؛ الْقَهْر والاستيلاء؛ فَإِذا مَاتَ الْخَلِيفَة فتصدَّى للإمَامة مَن جمَعَ شرائطَها مِن غير عهدٍ إِلَيْهِ مِن الْخَلِيفَة الْمُتقدِّم، وَلَا بَيعَةٍ مِن أَهل الحل وَالْعقد، انْعَقَدت إِمَامَتُه... وإِنْ لم يَكُن جامعاً لشرائط الخلافة بأن كان فاسقاً أو جاهلاً؛ فوجهان لأصحابنا الشافعية"[٤٩].

وقال ابن العراقي: "وادِّعـاءُ الإجماع مـردودٌ؛ لخروج الحسين على يزيد بن معاوية..."[٥٠].

وجاء في "موسوعة الإجماع": "خالَفَ الإجماعَ الخوارجُ والمعتزلةُ، ووجهُ عند الشافعية؛ إنْ لم يكُن جامعًا لشرائط الخلافة بأن كان فاسقًا أو جاهلًا؛ فلا يَصحُّ الإجماع لوجود الخلاف"[٥١].

---

(٤٩) مآثر الإنافة، ط2 مطبعة حكومة الكويت، (٥٨/١).

(٥٠) تحرير الفتاوى، ط1 دار المنهاج، (٣/١٦٢).

(٥١) موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، ط1 دار الفضيلة، (٥/٦٠٢)، بتصرف يسير.

فدعوى الإجماع مردودةُ لِخلافِ الخوارجِ والمعتزلة من أهل الملة، ومنقوضةُ لِخلافِ فريقٍ من الشوافع والأحناف وغيرِهم من أهل السنة.

الوجه الثاني: لو سُلِّمَتْ صِحَّةُ الإجماع فإنَّ مِن قواعِدِ المعارِف الإسلامية التي يَتَحرَّرُ في ضوئها الخلافُ العلميُّ، قولَ أئمة العلم: "حَمْلُ قولِ العالِمِ على وجْهِ القَبولِ أوْلى مِن رَدِّهِ". لأنَّ "الإعمالَ أَحرى مِن الإهمال"، ولأنَّ "الجمعَ أَوْلى مِن الترجيح"، وتخريجاً للإجماع الذي نَقَلَه الإمام ابنُ بطال على هَذِيكَ القواعد، تُقَيِّدُ دعوى الإجماع بالمعاني التي دارَ عليها تأصيلُ التغلُّب، كفِقهِ الضرورة وشُعورِ المنصِب واجتماعِ الكلمةِ واستِيفاءِ الشرائط، فيتَوَجَّهُ الحَمْلُ على هذه العِللِ، وتُضَمَّنُ تلك المعاني في ثنايا الإجماع المنقول، فيصير المعنى: "والفقهاءُ مُجْمِعُون على أنَّ طاعةَ المتغَلِّبِ واجبةُ ضرورةً..". وعلى هذا لا يَرِدُ التعارضُ بين صحيح النصوص وصريحِ النقول، وبين أقاويل أهل العلم في تحرير فقه المسألة وتقرير حُكمها. ويَعتَضِدُ هذا المحمل بتعليلِ ابنِ بطال كلمةَ الإجماع بقوله: "لما في ذلك مِن تسكين الدهماء وحقن الدماء".

الوجه الثالث: مَن تَأَمَّل الإجماعَ الذي نَقَله ابن بطال، أَلْفاهُ دَعوى بلا دليل، والدليلُ القائم عليها لا لها، وإنما الأمرُ حكايةُ للإجماع في مورِد النزاع، لاستِفاضة الخروجِ على الظَّلَمَة وشُيوعِ تَبَرُّم أهلِ الفقهِ والدِّين بِدَنايَا الفَواسِقِ وفَجَرات لصوص الحُكْم. وقد سَلَفَ القولُ في كونِ التغلُّبِ فِسْقًا صريحًا وجَوْرًا بَيِّنًا، وعليه فدعوى لزومِ طاعةِ المتغلِّب إجماعاً، يُرادِفُها تحريمُ الخروج على الظلمةِ إجماعاً[٥٢]! وهذا ما لا سبيلَ إلى حكايته. ولهذا اشتد نكير ابن حزم على ابن مجاهد البصري الطائي حين زعم الإجماع على هذا فردَّ ابن حزم قائلا: "فاستَعْظَمتُ ذَلِك؛ ولعمري إنه عَظِيم... وَقد علم أَنَّ أَفاضِلَ الصَّحَابَة وَبَقِيَّةَ النَّاس يوم الْحرَّة خَرجُوا على يزِيدِ بنِ معاوية، وأنَّ ابنَ الزبير ومَن اتَّبعهُ من خِيَار الْمُسلمين خَرجُوا عَلَيْهِ أَيْضا؛ رَضِي الله

(٥٢) من أهل العلم الذين عَقَدُوا التلازم بين دعوى إجماعِ طاعةِ المتغلِّبِ، الإجماعَ على تحريم الخروج عليه؛ الإمام ابن الوزير. انظر: العواصم والقواصم، ط1 مؤسسة الرسالة، (٧٧/٨).

عَن الخارجين عَلَيْهِ ولَعَن قَتَلَتَهُمْ؛ وأنَّ الحسنَ البَصريَّ وأكابرَ التَّابِعين خَرجُوا على الحجَّاج بسيوفهم... ولعمري لَو كَانَ اخْتِلَافًا يَخفى لعَذَرْنَاه، وَلكنه أَمرٌ مَشْهُور يَعرفهُ أَكثرُ الْعَوامِّ فِي الأسواق والمخَدَّراتُ فِي خُدُورهنَّ لاشتِهارِهِ"[٥٣].

واعلم أنَّ الخروجَ على السلطان الجائر بالسيف مِن قضايا الخلاف، وقَيَّدَه بعضُهم بمن فَحُشَ ظُلمُه، وأطلَقَ البعضُ القولَ بقِتَالِه على مطلَقِ الجَوْر، والأوَّلُ أقرَبُ للتقوى وأعْلَقُ بالسبب الأقوى[٥٤]، قال الجصاص: "وكان مذهبه - أبو حنيفة- مشهوراً في قِتال الظَّلَمَة وأئمة الجَوْر... وقضِيَّتُه في أمرِ زَيدِ بن عليٍّ مشهورةٌ، وفي حَمْلِه المالَ إليه وفُتْياهُ الناسَ سِرًّا في وجوب نُصرتِهِ والقتالِ معه، وكذلك أمْرُهُ مع محمدٍ وإبراهيمَ ابنيْ عبدِ الله بن حسن..."[٥٥].

وقال ابن مفلح: "وجَوَّزَ ابنُ عَقيل وابنُ الجوزي الخروجَ على إمامٍ غيرِ عادلٍ، وذَكَرَا خروجَ الحسين على يزيد لإقامة الحق، وكذا قال الجويني؛ إذا جارَ وظَهَر ظُلمُه ولم ينزجِرْ حين زُجِر، فلهم خلعُهُ ولو بالحرب والسلاح"[٥٦].

وقال الشيخ صديق حسن خان: "وذَهَب بعضُ أهل العلم إلى جَوَاز الخروج على الظلمة أو وُجُوبِهِ، تمسُّكًا بأحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أَعَمُّ مُطلَقًا مِن أحاديث الباب[٥٧]، ولا تَعَارُض بين عامٍّ وخاصٍّ"[٥٨].

---

(٥٣) مراتب الإجماع، ط١ دار ابن حزم، (ص٢٧٤).

(٥٤) يجب أن يُحرَّر مفهوم الجَوْر السلطاني ويَنضَبِطَ بضوابط تَحكُمُه، ومن القواعد التي يُشْرَحُ في ضوئها، ما نَصَّ عليه الإمام الشوكاني في تصنيف القُضاة، فقال: «لا يَضُرُّ صُدورُ الجَوْرِ المغلوبِ بالعدل، إنما الذي يَضُرُّ ويُوجِب النارَ أن يكون الجَورُ غالباً للعدل». نيل الأوطار، ط١ دار الحديث، (٢٩٧/٨).

(٥٥) أحكام القرآن، ط١ دار الكتب العلمية، (٨٥/١). (٥٦) الفروع وتصحيح الفروع، ط١ مؤسسة الرسالة، (١٨٠/١٠).

(٥٧) قلت: وقَوْلُ الشيخ صِدِّيق حسن هنا: «وهي أَعَمُّ مطلقًا من أحاديث الباب، ولا تَعَارُضَ بين عامٍّ وخاصٍّ»، يريد تخصيصَ شعيرةِ الحسبة بنصوص الصبر على جَور الأئمة، لأنها أعمُّ وأشمل، وهذا كلامٌ مرجوحٌ، لأنَّ نُصوص الصبر أعمُّ مِن نُصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الإمامِ الطبري: «وأخبارُ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم لا تُضادّ، وإنما أحاديث السمع والطاعة مجملةٌ، تُفسِّرها الأحاديث الأُخَر المفسِّرة ما لم يخالف أمر الله، وهذا قول عامة السلف». وقال شيخ الإسلام: «فَمَن عَلِم أن هذا هو قتال الفتنة؛ الذي تركُهُ خيرٌ مِن فِعْله؛ لم يجبْ عليه أن يعدِلَ عن نصٍّ مُعيَّن خاصٍّ، إلى نصٍّ عامٍّ مطلقٍ في طاعة أولي الأمر». فَنَصَّ على عموم نصوص الطاعة. انظر: إكمال المعلم، ط١ دار الوفاء، (٢٤٢/٦)، مجموع الفتاوى، ط المجمع، (٤٤٣/٤).

(٥٨) الروضة الندية، ط دار المعرفة، (٣٦٣/٢).



ونَظَرًا لاستفاضة الثوران على المتغلِّبين في طبَقَتَي الصحابةِ والتابعين، افتَقَرَتْ دَعْوى الإجماع إلى إقرار حقائق التاريخ الثوريِّ لكثير مِن أعيان القرون الخيرية، فَزَعَم ذَوُوها أنَّ الإجماعَ تَحَصَّل بعد تلك الأعصر، حتى نَقَلَ بعضُ الفقهاء الإجماعَ وحَكى ما يَنْقُضُه في سطرٍ واحد! قال الشربيني: "نُوزِعَ في الإجماعِ بخروج الحسين على يزيد بن معاوية، وابن الزبير على عبد الملك بن مروان، ومع كُلٍّ منهما خلْقٌ كثيرٌ مِن السلف، وقد يقال: إن مُرَادَه الإجماعَ بعد ذلك[٥٩]، وفَرَّقَ بعضُهم بين مَن تَغلَّب على الإمامة فَيَجُوز الخروجُ عليه إذا جَارَ وبَغى، وبَين مَن عُقِدت له الإمامةُ فلا يجوز"[٦٠]. فانظر كيف اتَّسَعَ هذا النَّقلُ لرواية الإجماعِ وحِكاية ما يُبطِلُه!

الوجه الرابع: أنَّ الإمام ابن بطال لم يَجزِم بوجوب طاعة المتغلِّبِ، وإنما جَعَلَ "طاعتَهُ خيراً من الخروج عليه"، وهذا نصٌّ منه في عدم الوجوب. ولم يَتناولِ الإجماعُ المذكور حُرمَةَ الخروج، ولا قَطَعَ بحتمية الطاعة.

الوجه الخامس: بعد تقليب النظر في "إجماعات ابن بطال" أَلفَيتُهُ يَنقُلُ الإجماعَ في كثيرٍ مما حُفِظَ فيه الخلاف، مما لا يتسع له المقام هنا، ويعرفه أهل الفقه، فلا يُعَوَّل عليه في حكاية الإجماع لتساهُلِه في ذلك، قال الشيخ عبد الله الغنيمان: "وابنُ بطالٍ؛ عفا الله عنَّا وعنه؛ كثيراً ما يَدَّعي الإجماعَ على مسائل، الحقُّ خلافُها"[٦١].

---

(٥٩) يقصد الإمام النووي.

(٦٠) مغني المحتاج، ط1 دار الكتب العلمية، (٣٩٩/٥).

(٦١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، (٥١/١).



الجاسوس
الذي
سقط على الأرض

◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇

أحمد الحمدان



(الجاسوس الذي سقط على الأرض)..
هذا اسم الفيلم الوثائقي التي تدور أحداثه حول الجاسوس المصري (أشرف مروان).

هـذا الوثائقي ذو الساعـة والنصف تقريبًا يجسد ما ورد في كتاب يحمل نفس العنوان للمؤرخ أو الصحفي الصهيوني المنشق أهـرون بريجمان، فقد صيغ هذا الفيلم الوثائقي وفق وجهة نظره، رغم أن الكتاب المشتهر عربياً عن (أشرف مروان) هو (الملاك: الجاسوس المصري الذي أنقذ "إسرائيل") للكاتب الصهيوني أوري بار جوزيف، والذي تُرجم للعربية من قِبل الدار العربية للعلوم، والممنوع في مصر، والذي تسبب في معاقبة مؤسس دار التنمية في مصر (خالد لطفي) لنشره، على أساس أنه يحوي أسراراً عسكرية!

أشرف مروان باختصار هو صهر الرئيس المصري الأسبق جمال عبدالناصر، وقد كان مساعده ولم يأخذ دوراً مهماً، وهذا -حسب ما ظهر في الفيلم- كان سبب نقمته على عبدالناصر، وبعد وفاة الأخير سنة ١٩٧٠ عرف مروان أنه أصبح في مهب الريح ولا بد من استغلال هذه المصاهرة لتثبيت وجوده.

استطاع مروان أن يحصل على أرشيف أو بعض الوثائق والمستندات الخاصة التي تخص جمال عبدالناصر، وسلمها للسادات من أجل محاربة خصومه، وهذا ما جعله يكسب ثقة السادات الذي اتخذه مستشاراً أمنياً وسياسياً. ثم فتح مروان قناة تواصل مع الصهاينة وأصبح عميلاً لهم، وأمدهم بتوقيت حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبعد الحرب أصبح بطلاً قومياً في الكيان الصهيوني ومصر في آن واحد!

"وتنبع أهمية الجدل حول أشرف مروان من أن هنالك مساحات ضبابية حول عمالة أشرف مروان، وهذا ما يجعل الرواية الصهيونية تتضارب مع الرواية المصرية؛ والسبب أنه لو ثبت أن أشرف مروان جاسوس صهيوني، سيكون منقصة وعاراً في حق مصر، أن يبلغ الاختراق الاسرائيلي هذا المدى، وإذا ثبت أنه جاسوس مزدوج ستكون هذه من أكبر النكايات التي حدثت للكيان الصهيوني، فلذلك الكل يَنفي رواية الآخر لكي لا يظهر بمظهر الأبله المخدوع."

طبعاً في هذا الفيلم الوثائقي ظهر وتكلّم بعض ضباط الموساد الذين عاصروا هذه الحقبة وكانوا شهود عيان عليها، في المقابل لم يخرج في الجانب المصري سوى عبدالله حموده!

يَستند المصريون في فرضية أن أشرف مروان جاسوس مزدوج إلى ما كتبه إيلي زعيرا رئيس المخابرات الحربية الصهيونية في مذكراته، فقد قال إن هذا الجاسوس خدعنا، وبعضهم يقر أن هذه الخطوة كانت بموافقة ومعرفة القيادة المصرية؛ لأن مروان كان متهوراً في التواصل مع الصهاينة؛ فقد كان يتصل مباشرة بالسفارة الصهيونية في لندن من أجل التواصل أحياناً، وأحياناً أخرى يأتي بسيارة السفارة المصرية إلى مكان اللقاء!



" ويرّد الصهاينة على المصريين وإيلي زعيرا معاً بالقول إن إيلي زعيرا حصل على الإنــذار المبكر ولكنه لـم يعلن عن الاستنفار، وهذا ما تسبب بتقدم المصريين علينا خطوة واحدة، وما قوله إن أشـروف مـروان جاسوس مـزدوج إلا تبرير لخطأه وليبين أنه لم يكن ليأخذ بنصيحة شخص مشكوك فيه! وأن هذا سبب عدم إعلانه حالة الطوارئ. "

وتبقى هذه نقطة الخلاف الرئيسية بين الطرفين في تحديد ماهيّة أشرف مروان، لكن مما لا شك فيه أن أحد الأطراف اتضح له حقيقة الموقف، وتبين له موقف أشرف مروان الحقيقي؛ لذا أقدم على قتله انتقاماً منه، ولكي يوصل رسالة إلى أي جاسوس مزدوج أن هذه هي نهاية من تعامل معنا من أجل أن يخدعنا، ولكن أيضاً تحديد هوية الجهة التي تقف خلف عملية القتل حسب الوثائقي- فيها خلاف، فأسرة أشرف مروان تقول إن الموساد وراءها، ويرد الصهاينة في الفيلم أن المصريين خلفها، وأن حالهم أشبه بحال عصابات المافيا الذين يقتلون أحد أفرادهم ثم يعزون أرملته ويقيمون له جنازة مشهودة!

ولكنّ مشاهد هذا الوثائقي يخرج بأمور، منها:

(ا) أن الصحفي الاستقصائي أو المؤرخ أهرون بريجمان عندما قرأ مذكرات إيلي زعيرا، أثارت فضوله نقطة الجاسوس المصري، وجلس يبحث ويقرأ ويجرد ويربط الخيوط ببعضها، وتأكدت له بعض القرائن أن الجاسوس المقصود هو أشرف مروان، ولكن احتاج إلى تأكيد، ولم يحصل عليه من المؤلف إيلي زعيرا، ولكن استخرجه من المحرر ومنقح الكتاب بشكل غير مباشر.

إذ من المعلوم أن الشخصية السياسية أو الاستخباراتية أو العسكرية الكبيرة عندما تؤلف كتاباً أشبه بالمذكرات، تراجع الجهة التي كان يعمل لديها الكتاب وتحذف ما هو خطر على الأمن القومي، فلذلك المنقح أو المراجع يقرأ المادة ويعدل بعض ما فيها. وانظر الى خاتمة كتاب ضابط الاستخبارات الأمريكي هنري كرامبتون (فن التجسس) مثلاً لتعلم، ولكن الشاهد أن الصحفي خرج من هذه المعلومة عندما قال للمصحح أو المراجع أن الجاسوس هو أشرف مروان أليس كذلك؟! فما كان من هذا المصحح إلا أن اتسعت عيناه على آخرها اندهاشاً، فكانت هذه إشارة على تأكيد صحة المعلومة وتثبيتها!

وفي العالم الغربي عموماً تتاح بعض الوثائق السرية للعامة تحت (قانون حرية المعلومات)، فقد يقاضي الصحفيون أو الباحثون بعض الجهات الحكومية من أجل الحصول على المعلومات، وهذا ما يجعلك ترى أن مثلاً بعض القرارات الخاصة أو السرية قد صدرت حديثاً ومع ذلك تراها بين يدي الباحثين (راجع مثلاً كتاب: حروب قذرة لجيمي سكاهيل سوف ترى مثالاً على هذا).

" وهذا بلا شك يفيد الباحثين، بل الحكومة نفسها، فكثرة تناول المادة البحثية الخام من جمهور من المحللين، قد يجعل الحكومة تستفيد من تحليلات هؤلاء أكثر من استفادتها من تحليلات محلليها الحكوميين! فقد يكتشف البعض ما خفي على المحلل الرسمي أو الحكومي ويقرب نظر الحكومة من فهم الحالة بشكل أفضل أو أمثل. "

ولكن في بلادنا العربية، لا تستطيع أن تقوم ببحث استقصائي في أمر يتعلق بالأمور الحساسة أو تتعلق بالشخصيات الكبيرة، إلا في اتجاه واحد وهو اتجاه "التطبيل"، وليس كتابة التاريخ كما هو، ومن حاول أن يشذ أو يسأل أو يتطفل فلا يوجد أسهل من أن يعتقل بأي تهمة ويُنسى أمره في السجون حتى إذا خرج لم يجد شيئاً أبغض إليه من البحث الاستقصائي والتأريخ، ومن المعلوم أن دولنا العربية لا تؤرشف الأمور السرية على النحو الذي يقع في الدول الغربية، فلذلك لا تستطيع أن تجد التاريخ السري بالنحو الوافر إلا من

خلال شهادات بعض الشخصيات التي كانت في مناصب قيادية أو كانت قريبة منها. وبعضها يموت ويموت سرها معها.



(٢) أن مجال المخابرات ليس دخوله كخروجه، والبعض قد يكون مرسلاً من حكومته وأدى واجبه بشكل صحيح، ولكن مع ذلك تبقى الشكوك تحوم حوله إذا ما خرم القاعدة أو تعامل فعلاً مع العدو وأراد أن يكسب هذا الجاسوس من الطرفين! أي يكسب ود حكومته لقيامه بهذا الدور الخطر وفي نفس الوقت يكسب الأموال الطائلة التي يأخذها من الموساد بتعامله معها ضد حكومته.

فقد ذُكر في الفيلم أن أشرف مروان تسلّم مليون دولار مطلع السبعينيات، وهذا مبلغ كبير جداً آنذاك، لذلك مسألة ضبط ومراقبة وتقييم الجاسوس المزدوج أمر حساس للغاية، وكما يقول ستيفن غراي صاحب كتاب (أسياد الجاسوسية الجدد) عندما نقل توجيه وكالة الاستخبارات الأمريكية فيما يتعلق بالجاسوس المزدوج:

"فقادة شبكات التجسس الخبراء يعرفون أن النجاح في تشغيل العميل المزدوج كان أحد أصعب الأمور التي يستطيع أي ضباط استخبارات القيام به. ومثلما نصحت وكالة الاستخبارات المركزية موظفيها في العالم ١٩٦٣ : إن تشغيل عميل مزدوج هو أحد نشاطات مكافحة التجسس الأكثر تطلباً وتعقيداً التي يمكن أن يقوم بها أي جهاز استخبارات. حتى إن توجيه عميل مزدوج واحد أمر شائك ومستهلك للوقت، وتجب محاولة القيام به فقط في جهازٍ يملك كفاءةً وتمرساً عاليين".

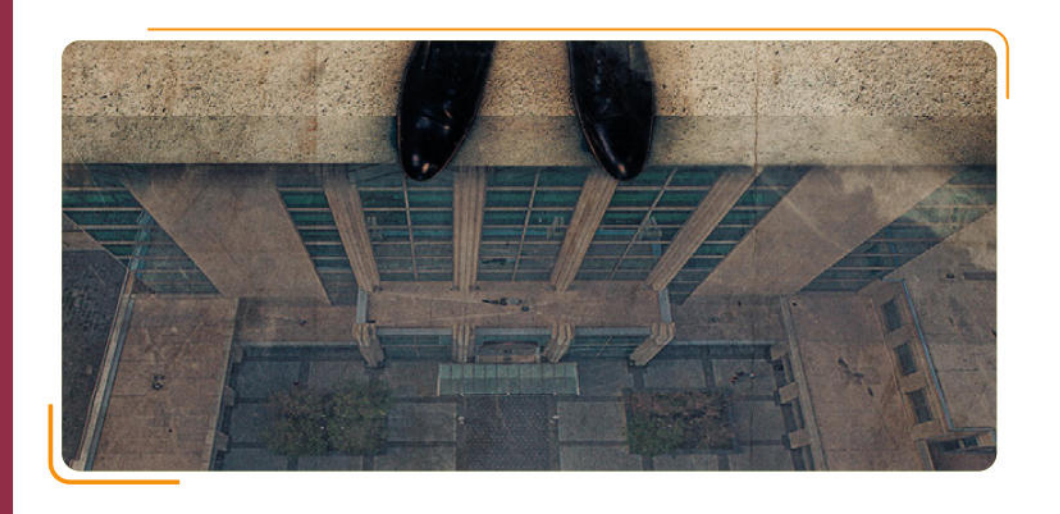
(٣) استعرض الوثائقي النزاع المعلوماتي الذي حصل بين رئيس الموساد الأسبق تسفي زامير، وبين مدير الاستخبارات العسكرية الصهيونية الأسبق إيلي زعيرا، وكلاهما ظهر في التلفاز لينتقد الآخر، مما حدا بالموساد أن تقيم تحكيماً داخلياً بينهما!

طبعاً زعيرا خسر أمام زمير، ورغم أن زعيرا كان أشبه بالمنشق عن الكيان الصهيوني (إذ بعد أن أُلقي باللوم عليه بخصوص خسائر حرب ١٩٧٣ ترك فلسطين المحتلة واستقر في أمريكا) إلا أنه مع ذلك التزم بسلطة الموساد وقبِل بالتحكيم الداخلي. وهذا أمر غريب، وأحياناً يصاب المرء بنوع من خيبة الأمل، عندما يرى انعدام مثل هذه السلطة في سوريا وعدم خضوع المجاهدين لها، فمن المعلوم أن الحالة الفصائلية المرضية في سوريا، جعلت من إحدى سماتها (نشر الغسيل) عند الخلاف، ونشر الأسرار أمام الناس، وتوريط الخصم بنشر ما يضرّه بل ويضر الساحة والجماعة ككل.

فلا يوجد هنالك كيان يُخضع أو يخضع له هؤلاء يلزمهم بالاحتكام إليه عند الخلاف، ولا يوجد لديهم نفس الورع الذي وجد لدى ابن حزم كما في طوق الحمامة عندما ذكر أنه بعدما حصلت خصومة بينه وبين أحدهم وأفشى كل ما بينهما أمام الناس، فامتنع ابن حزم أن يفعل نفس صنيعة وقال: (ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكر في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته وكثرت إلي ذنوبه، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى، والحمد لله على ذلك كثيراً).

(٤) أحياناً يُستفاد من أساليب الاستنطاق أو الاستدراج كالتي فعلها الباحث الاستقصائي مع محرر الكتاب الذي كان يعلم المعلومة الحقيقة، فعرف صحة المعلومة بناءً على ردة فعل المحرر عندما سأله، وهذا ذكرني بما قاله عبد الله العدم في سلسلته (صناعة الإرهاب) لما تكلم عن استدراج الطرف الآخر للحصول على المعلومة فقال: (أوّل هذه الأمور -الحيل- ذكر معلومات كحقيقة لإثارة التأكيد أو النفي؛ فربّما تقول للهدف معلومات حقيقيّة ولكنك تريد أن

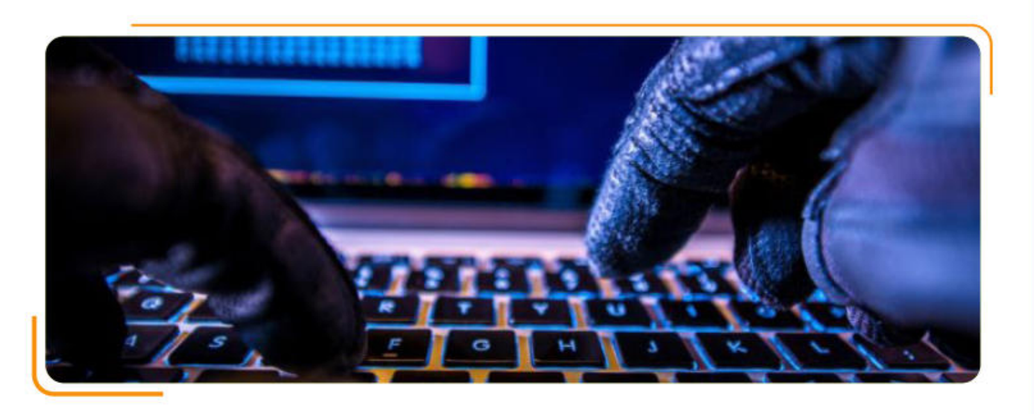
تتأكَّد هل ينفي هذه المعلومات أو يؤكِّدها، تقول له كذا وكذا، هي معلومات حقيقيَّة أنَّ الجنرال اسمه مثلاً محمَّد أيُّوب؛ هي معلومة حقيقيَّة ولكنك تريد أن تتأكَّد هل هو ينفيها أو يؤكِّدها)، وهذا فعلاً ما تم.



(٥) أحياناً يكون السبق الإعلامي الذي يحب الصحفي أن يحققه لما يعطيه من شهرة ومكانة ذا انعكاسات سلبية، فالكثير منهم يريد أن يحقق هذه السبق دون النظر إلى العواقب، فقد كان عمل أشرف مروان قد مضى عليه فترة طويلة ونُسي أمره، وأصبح في طي الكتمان، لا أحد يعرفه ولا يتكلم عنه واستقر في لندن وتفرغ لتربية أبنائه، وعاش في الظل وظن أنه سوف يبقى هكذا إلى أن يموت.

وبعد أن استطاع أهرون بريجمان أن يكشف الأحجية ويفجر المفاجأة ويعلن عن اسم الجاسوس لأول مرة، جعل أمر هذا الجاسوس مثاراً فوق السطح، وأصبح تحت الأضواء من جديد، وأصبحت حياته مهددة، وكان بريجمان قد كوّن علاقة شخصية مع الجاسوس أشرف مروان، وقال إنه بعد أن توفي مروان في ظروف غامضة قد شعر بالمسؤولية عما حصل له! وقال إن غايته كانت السبق الصحفي ليس إلا. ونحو ذلك.

الحصريات قد تجعل الشخص ذا مكانة عالية لما يلم به من اطلاع، ويجعل كلامه يُنظر إليه بشغف، وأحياناً هذا الداء يتضخم لدى الشخص، فيحب أن يحافظ على هذه الصورة وهذه المكانة، ومن أجل الحفاظ عليها لا بأس أن يمرر أسراراً تضر بآخرين، المهم أن يبقى في ذات المكانة.



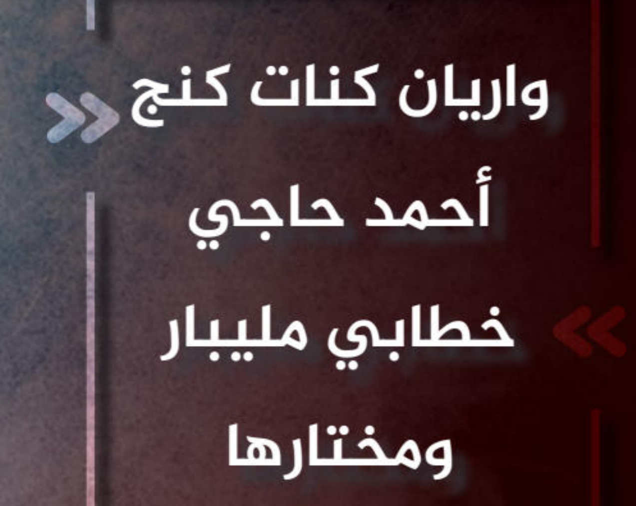
والأمر هذا لا يقتصر على الأشخاص المعروفين، بل قد تجدهُ حتى موجوداً لدى الحسابات ذات الأسماء المستعارة في مواقع التواصل الاجتماعي.

***

في الختام، قد تكلم الوثائقي عن أمور أخـرى، مثل حقيقة الانتحار والسقوط من الطابق السابع، ولماذا كان الكيان الصهيوني يظن أن مصر لن تشن حرباً وفق رواية ضباط الموساد ، وغيرها من الأمور.

والفيلم ليس على النمط الذي يعرض صورة واحدة ويطمس الأخرى، بل كان يعرض الحجتين ويظهر لك أن الأمر ملتبس دون الجزم القاطع، وسواء كان أشرف جاسوساً صهيونياً أو جاسوساً مزدوجاً مصرياً، فكلا الطرفين له مصلحة في قتله.

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



واريان كنات كنج أحمد حاجي خطابي مليبار ومختارها

صبغة الله الهدوي

حركة الخلافة الإسلامية التي انطلقت في شبه القارة الهندية لم تك مجرد ردة فعل لأعمال العنف التي مارسها الاحتلال البريطاني في الهند؛ بل كانت لها أبعاد متشعبة.

لقد كانت تلبية لنداءات الوقت الذي كان يتسعر بالصراعات المسجورة، وتضربه رياح الثورة والنضال التي أودت بطموحات الإمبراطوريات الكثيرة، وكان لمليبار الهندية، حظ كبير في تلك الأحـداث التي غيرت بوصلة التاريخ والزمن، وكان لأعلامها حضور فاعل في سجل الثورات والمعارك.

وشهدت مليبار في تلك الفترة العصيبة ميلاد بطل ثائر سليل المجد والشموخ، مثل في سيرته ومسيرته حياة المجاهد المغربي عبدالكريم الخطابي، إنه المناضل من أجل الكرامة والوطن وارينان كنات كنج أحمد حاجي، شيخ وقور مهاب في عباءته، وطربوشه الأحمر يعبر عن الثورة والمعركة، وخنجر بخاصرته يرمز إلى أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

"وحياة البطل وارينان كنات كنج أحمد حاجي يلهم الكثير من عشاق الحرية والكرامة، رجل في منتهى البساطة يصبح كابوساً لأكبر جيش لا يقهر، ويكبد الاحتلال خسائر فادحة في ممتلكاته ليكون مثلاً سائراً للشجاعة والثورة فيما بعد، ويملأ اسمه وكفاحه آفاق الصين الشيوعي والاتحاد السوفييتي التي شهدت ثورات الفلاحين والكادحين."

والجميل في سيرة هذا البطل هو تلك العمليات الثورية التي قام بها ضد الاحتلال البريطاني وضد نظام الطبقية التي صنعت في المجتمع سياجات من العنصرية والعرقية واستغلت الكادحين والفلاحين، مما خلف في المجتمع الكادح موجة من الغضب والتمرد ضد الذين استغلوهم زمانا طويلا وداسوا كرامتهم بأقدام الذل والخذلان، إلى أن انتفض الشعب وثارت ثورته حتى انهدت الصروح التي بنيت على أشلاء الطبقات المشردة وانهارت إمبراطوريات الأثرياء التي طالما امتصت دماء الفقراء والعمال.

ولد واريان كنت كنج أحمد حاجي في عائلة اتسمت بالنضال والكفاح ضد الاحتلال والاستعمار، وكان أبوه أحد أبرز قيادات المعركة التي جرت في "ماناركاد" المليبار حتى نُفي إلى جزيرة آندمان وصودرت ممتلكاته عقابا له، فنشأ في بيئة محترقة مضطربة بالمشاكل، يتحدى العقبات، ويقاوم الظروف القاسية التي كونت فيه شخصية تطمح إلى الحرية الكاملة وعدم الاستسلام لأي نوع من أنواع الخنوع والخضوع، وأدرك مبكرا أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وأن الاحتلال البريطاني الغاشم هو العدو الأكبر للأمة المسلمة أولا وللهند ثانيا.



"فلم يمض طويلا حتى خاض المعارك وقاد عمليات المقاومة ضد الاحتلال ليطير اسمه طيران النار في الهشيم، وأصبح نذير شر لكل الذين وسعوا دائرة طموحاتهم على ربوع مليبار، فقام بتوعية العوام عن مناهضة القوات التي تنهب مواردهم ومقاومة الخونة الذين يطعنون الشعب من داخله، ووقف في وجه الذين باعوا القضايا الوطنية بثمن بخس سدا منيعا يدفعهم أولئك الخونة إلى هاوية الذل والخنوع، واستحث الشعب عن بكرة أبيه على خوض المعارك والصراعات من أجل الكرامة والحرية، وبعث في أرواح الفقراء الذين استولى عليهم اليأس والهلع العزم ووحي الإباء، وجندهم لمقاومة الاحتلال وحاشيته، ودربهم تدريبا عسكريا."

فحياة وارينان كنات كنج أحمد حاجي خلفت في الأجيال الصاعدة ذكريات أسد الصحراء عمر المختار، وأسد المعارك الريفية عبدالكريم الخطابي، وجددت فيهم العزة التي لا تداس والكرامة التي لا تنسى، وكان حضوره القوي مما بخر أحلام الاحتلال، وأزاح أقنعته، وتبدأ سلسلة حياته في المعارك بعد أن نفي أبوه إلى جزيرة آندمان نيكوبار، إلا أن الابن البطل واصل مسيرة أبيه الثائر، فأصبح غضبة أعين البريطانيين حتى قاموا بعدة تفتيشات عسكرية للعثور عليه لكنه تنصل منهم وغادر إلى مكة المكرمة وقضى هنالك ثلاث

سنوات ليكون عالما يجمع بين النضال والمعرفة، وأبى الاستسلام حتى بعد أن قدم أمامه حكومة الاحتلال عرضا مثيرا وذلك لو طلب الحاجي من الحكومة العفو والسماح سوف تتركه في مكة آمنا مطمئنا بلا أي تضييقات قانونية، لكنه رفض رفضا باتا ليعود بعد ذلك كابوسا على الاحتلال وأربابه.

"هنا في مليبار حيث يعانق سماؤها النضال والثورة منذ زمن بعيد، رسم الحاجي خطته الكبيرة التي تنامت من حلم صغير إلى دولة كبيرة مستقلة أمام أعين الاحتلال، رغم ما طوقها من عيون الزميندارييين الذين امتلكوا الأراضي الواسعة والغلة والمزارع واستثمروا جهود الكادحين في الحقول، وأجبروهم على مزاولة العمل رغم حرقة الشمس التي ركعت ظهورهم ورغم بلل العروق الذي يتصبب من جباههم العالية ومن وجهوهم الأبية، ثم أذلوهم بعد أن حان وقد الحصاد."

فقام فيهم البطل يردد فيهم "الآن الآن وليس غدا"، ليملأ في قلوب الملايين نشوة الجهاد والنضال ضد كل الذين شردوهم وهزموهم، حتى فتحوا البوابات العالية المنصوبة أمام القصور المنيفة، وفتحوا الخزائن التي ملأتها الأيادي العاملة بينما كان أرباب القصور يتمتعون بالملذات ويرتعون في الشهوات، فلم يمضِ طويلاً حتى دق ناقوس الجهاد وارتفعت في الجو تكبيرات الثورة، وانتقل الموكب الغاضب من حارة إلى أخرى، ومن قصر أسس على عروق الفقراء إلى آخر، فانهارت أمام تلك الجيوش المدججين بالعزم والصمود كل القصور والدور التي كانت تعكس جبروت الطغيان والاحتكار، ورأى الطغاة ذلك المشهد الذي أرعبهم وتحيروا من تغير الحال الذي حدث أمامهم بين غمضة عين وانتباهتها.

فتآمروا على الحاجي وأرادوا إيقافه لكن السيل لم يقف بل زاد موجة ورغوة إلى أن أسس مملكة سماها بـ"مالايالا راجيام" الذي تحدى الاحتلال، وتحدى كل الذين ظنوا في أنفسهم أنهم حماة الوطن وسدنته، وكان لمملكته الصغيرة جواز سفر خاص بها، ودستور خاص وحكم خاص يعد الجميع بالعدالة والإنصاف، ونشر طيلة دولته ظلال العدالة وعاقب كل من تطاول على الحرية والكرامة ولم يرحم أحدا شارك في الخيانة والطعن من الداخل.

ورغـم تقديم البطل الشهيد خدمات جليلة من أجل الوطن والوطنية تعرض لهجمات شرسة مـن قبل العصابات المدعومة من آر أس أس وبي ج ب؛ إذ قاموا بعدة جهود مضنية لتشويه سمعته وتصويرها بأبشع الـوجـوه، ومـلـؤوا كتبهم ومنابرهم بلهجات الحقد والكراهية ووصفوه بالإرهابي والقاتل والمهووس الديني، وسعوا في محو الآثار التي تعبر عـن مـدى تأثير هذا البطل إلى وقتنا هذا.



وتصدر البطل عناوين الصحف والقنوات بعد أن أعلن فريق سينمائي من كيرالا عزمه إخراج فيلم يسلط الضوء على سيرته ومسيرته في الكفاح والنضال؛ لتثور الأوساط الهندوكية المتطرفة وتقود حملات الإساءات وتوقف الشهيد في قفص الاتهام ولتحمل عليه أثقال القتلى والجرحى الذين راحوا ضحايا الشغب والفتن التي اندلعت في ربوع مليبار في عشرينات القرن الماضي في أعقاب الأحداث التي جرت عام 1291م، فرسالة الحاجي الشهيد كانت واضحة تماما، فإنه لم يك متعصبا ولا متهورا حتى يقتل إخوته ويقضي على أعدائه لمجرد مصالح شخصية تافهة، إلا أن أقطاب الهندوكية المتطرفة استغلوا المشهد وأججوا نار الحقد والكراهية لتعتيم هالته التي أضاءت دروب الحرية والكرامة، لكنه لم يرحم أحدا خان قومه وأمته، وعاقب كل الخونة عقابا يليق بهم، لقد كانت كلمته صريحة ومبادئه صارخة.

فمن مقولاته الشهيرة التي قالها للجنود لحظة إعدامه "كنت سمعت عنكم أنكم تطلقون علينا النار من الخلف، لكني أفضل أن أموت وطلقاتكم تصب على صدري"، ووقف البطل شامخا منتصب القامة، لم يستسلم حتى آخر أنفاسه، وأبى الخضوع أمام وعود قطعها الاحتلال له بشرط أن يستعفي منه، ورحل الحاجي بهدوء إلى عليين التاريخ، تاركا أمامه ذكريات المجد والإباء في وقت كان قيادات آر أس أس يتبجحون في بلاط الاحتلال، ويحبون صاغرين على استهم.



"ورحل عن الدنيا بعد أن أسس دولة وأمة، وأنشأ جيلا يجدد فيهم ذكرى أسد الصحراء عمر المختار، والشهيد الذي لا قبر له العربي التبسي، والبطل الذي ألهم تشي جيفارا عبدالكريم الخطابي، وخاف الاحتلال حتى من رفاته فأحرقه حتى لم يبق أي أثر من جثته، رحم الله شهيد الأمة وأحسن الله إليه جزاءه."



أخصر المختصر في ملامح النظام السياسي الإسلامي

محمد إلهامي

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ما زالت تزداد قناعتي كل يوم بأن المعضلة المعاصرة التي تواجه المسلمين ليست معضلة شبهات تحتاج إلى ردود وتوضيح وبراعة في البيان والتفسير والتفصيل، بل هي معضلة عجز وإخفاق تحتاج إلى كفاءة في العمل والإنجاز والبناء والتكوين.

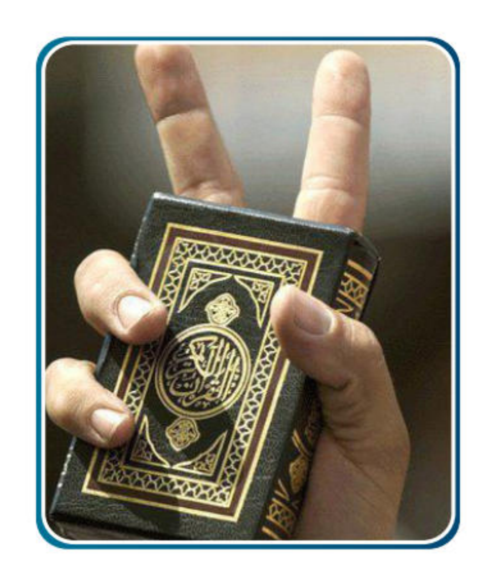


فالشبهة مهما كانت متهافتة فإنها تستمد قوتها إذا نطق بها القوي الغالب المتمكن، والحق مهما كان سديدا فهو مخدوش مُزْدَرى إذا نطق به الضعيف المهضوم، تلك طبيعة النفس البشرية، فإذا انقلبت موازين القوى فإذا بالشبهة المتمكنة التي كانت تهيمن في زمن القوة تزول كأنها غمامة صيف تنقشع، وإذا المهضوم المزدرى إذا غَلَبَ انتصرت أفكاره وأقبل عليها الناس بلا عسر.

ومع هذا كله، فلا بد من البيان فإنه أول العمل، وقد جعل البخاري باباً في صحيحه بعنوان "باب العلم قبل القول والعمل"..

"**ثم أقول:** وما زالت تزداد قناعتي كل يوم بأن الإنتاج المعاصر في باب السياسة الشرعية ليس قليلاً ولا هو ضعيف أو ضحل، وإنما هذا كلام من لم يكن لهم حظٌ من الاطلاع على ما أنتجه المعاصرون في باب السياسة الشرعية أو ما صار يسمى "الفقه السياسي الإسلامي"، والواقع عكس ذلك، فإن قضية الدولة الإسلامية كانت هي القضية الأكثر حرجا لدى المهمومين بقضايا الإسلام، طوال قرنٍ أو قرنين على الأقل، وأنتجوا فيها كثيرا جدا."

إلا أن أكثر هذا الإنتاج غير معروف ولا مشتهر، وما ذلك إلا لأن موازين القوى والتي من بينها منافذ الإعلام والثقافة- تسهم في طمر هذا الإنتاج وغمره. وإنما المنشور كثير جدا، وأكثر منه غير المنشور الذي لا يزال رابضا على رفوف المكتبات في الرسائل العلمية بكليات الشريعة والقانون والحقوق والاقتصاد والسياسة، فكثير من طلاب هذه الكليات عبر هذه العقود بحثوا الموضوعات المعاصرة والقضايا الملحة في الإسلام أو مقارنا بغيره من النظم الوضعية. وهذا فضلا عن إنتاج المجامع الفقهية ومراكز البحوث الإسلامية المتعددة التي حاولت سد هذه الثغرات وتقديم مشروع إسلامي.



"ولكن، وبسبب ما ذكرناه من هيمنة العلمانية على المجال العام ومنافذ التعليم والثقافة، فلا تزال الحاجة ماسة لتعريف المسلمين بملامح النظام السياسي الإسلامي، وكيف أنه متفرد متميز عن غيره. كما لا تزال الحاجة ماسة إلى تبسيط هذه المادة العلمية وتقديمها بمختلف الصور ووسائل الشرح لتحقق أكبر انتشار بين عموم المسلمين، وعموم غير المسلمين أيضا."

وفي النهاية، فمهما كان ثمة نظرية عظيمة متقنة محكمة، فلا مجال لرؤية عظمتها إذا لم تكن ثمة فرصة للتطبيق والتنزيل، وهنا تظهر بشكل أقوى موازين القوى التي لا تسمح بأدنى قدر من تحقق الفكرة في واقع الحياة. فمهما امتلكنا من البلاغة والفصاحة وأحسنًا الشرح والبيان والتفصيل، فلن يتغير شيء في الواقع.

لهذا الذي سبق كله، حاولت في هذه السطور القادمة اختصار أهم الأفكار التي أرى أن عموم المسلمين في حاجة لاستيعابها جيدا في ملامح النظام السياسي الإسلامي، وليس لي إلا غرض واحد فيها لو أنه تحقق فقد تمَّت النعمة، وهو: تجميع هذه الأفكار المتناثرة في خيط واحد لدى العقل المسلم، خيط يتصل فيه ما هو ديني بحت بما هو دنيوي بحت، يتصل فيه معنى التوحيد العقدي بشكل النظام السياسي، وهذا الاتصال هو الذي أستشعر كثيرا في نقاشاتي مع الشباب أنه مفقود أو غير واضح.

ووضعت هذه الأفكار في نقاط، حاولت أن تسلم كلٌّ واحدة منها للتي بعدها، فأسأل الله أن أكون قد وفقت في هذا:

١ اختلف معنى كلمة "السياسة" عبر الزمن، وفي زماننا هذا يُقسم المعاصرون "السياسة" إلى ثلاثة فروع كبرى هي: النظرية السياسية، النظم السياسية، العلاقات الدولية.

٢ مهما جاء أحدٌ بمشروع تغيير وإصلاح، فإنه لا يستطيع أن ينفكَّ عن واقعه ولا أن يبدأ من الفراغ، وإنما يأخذ من واقعه لمشروعه، ويعاني مضايقاته، ويتصرف في اضطراراته، ويوازن بين المصالح والمفاسد حتى يبلغ ما يريد. ولم يستطع المثاليون المتعلقون بالأحلام المستعلنون برفض الواقع المتعالون على السنن، أن ينجزوا التغيير في واقع الحياة.



٣ الموازنة بين المصالح والمفاسد، مهما كُتِب فيها نظريا، فإنها متعلقة بحكمة العاملين وقوة فهمهم للسنن وحسن بصيرتهم في تقدير المآلات، ومن ثمَّ فالحديث النظري إنما هو رسم للخطوط العامة والقواعد العريضة وتوضيح للأهداف والغايات، فهو كالهداية والإرشاد وليس قيدا لتعطيل العمل أو القعود بالعاملين. وهو تحديد للوجهة والطريق وليس حثًّا على المسارعة في هدم الواقع ومخالفة سنن التدرج ومراعاة الطبائع والتقيد بحكم الضرورة والاضطرار.

٤ تراجعت حركة الاجتهاد في الفقه السياسي لظروف عديدة: سياسية وعلمية، فالمجتهد في باب الفقه السياسي بحاجة إلى إدراك ثلاثة أمور: علم السياسة الشرعية، والعلم بالواقع المعاصر، وإدراك الفوارق بين النموذج الإسلامي والمعاصر على مستوى التنظير وعلى مستوى التطبيق التاريخي والواقعي. وهذه الأمور يتعذر تحصيلها في الأوطان التي يحكمها الاستبداد وينشر فيها التخلف العلمي.

٥ ومن شأن هذا أن يقع الخلاف الكثير والواسع أحيانا بين مكونات وأطياف العمل السياسي الإسلامي، فالخلاف قد يحدث في الاجتهاد نفسه، وقد يحدث في تنزيل هذا الاجتهاد على الواقع، وقد يحدث في كليهما. كما أن التطبيق العملي لهذا الاجتهاد قد يتناوله الخطأ، والعبرة بمجمل أحوال العاملين، ويجب أن تتسع الصدور لمن دلَّت مجمل أحواله على الرغبة الصادقة لخدمة الإسلام والمسلمين، مهما وقع الخلاف بيننا في التأصيل أو في التنزيل أو في التطبيق

٦ الأصل الأول الكبير الذي قام عليه الإسلام هو التوحيد، الذي هو شهادة "لا إله إلا الله"، ومن هذا الأصل الكبير تتفرع سائر الأصول والفروع التي تمثل نظام الإسلام في واقع الحياة. ومن ثم، فإن التوحيد يمثل صلب النظرية السياسية الإسلامية.

٧ تتمثل أهم آثار "التوحيد" في "النظرية السياسية الإسلامية" في أنه يحسم الإشكاليات الكبرى المعضلة التي اختلفت فيها النظريات السياسية الوضعية، وذلك لوضوح التصور العام والقيم الأساسية والأهداف النهائية وطبيعة العلاقات السياسية والاجتماعية.

٨ إن الله تبارك وتعالى قد اختص نفسه بالخلق والأمر {ألا له الخلق والأمر}، ومن ثم فإن البشر سواء، ولا فضل للحاكم على المحكوم وإنما هو وكيل عنهم، وهم جميعا -الحاكم والمحكوم- يعملون لتنفيذ أوامر الله التي أنزلها على رسوله، ومن هنا نزع الإسلام كل الأصول والقواعد التي يقوم عليها الطغيان، فالحاكم ليس إلها ولا شبه إله ولا ينحدر من نسل الآلهة، كما أن القوانين والشرائع التي

تهيمن على المجتمع ليست من إنتاج الحاكم أو النخبة الحاكمة وليست وثيقةً كتبها المنتصر في لحظة ما، بل هي شريعة الله التي يعلمها ويخضع لها الجميع.



٩ وكل محاولة للطغيان على البشر تبدأ منذ اللحظة التي يتغلب فيها أحدهم، فيكتب في لحظة نصره الوثائق والقوانين التي يحكم بها الناس، ليتحول انتصاره إلى حالة شرعية وتتحول مقاومته إلى حالة خروج عن الشرعية تستوجب العقوبة. هذا الطغيان على الناس يراه الإسلام "عبودية لغير الله"، ويعتبر المسلمون أن من مهماتهم إنقاذ الناس بإخراجهم من عبادة غير الله إلى عبادة الله، وبذلك يخرجون من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

١٠ هذا التأسيس العقدي للتوحيد يتفوق على كل تأسيس آخر فكري ونظري، لأنه يستمد قوته من كونه دينا وعقيدة، وليس مجرد فكرة أو فلسفة، وبهذا يتحول المسلم -من هذه الزاوية- إلى طاقة عملية جبارة في التغيير، لا إلى مجرد عنصر يحمل فكرة ثورية فحسب!

١١ وبعد هذا التأسيس العقدي، فإن الإسلام يبني نظامه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بحيث يقلص الصلاحيات الممنوحة للحاكم ويجعلها في الحد الأدنى اللازم لإدارة وتدبير شأن الناس، وفي نفس الوقت يزيد من التكتل الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع، بحيث تكون القدرة على اضطهادهم واستعبادهم أصعب ما يكون، إذ هي خروج على الشريعة وعلى النظام الاجتماعي الراسخ في نفس الوقت.

١٢ بهذا صار مستقرا لدى المسلمين، حتى في عصور هيمنة الإمبراطوريات التي يزعم حكامها أنهم يحكمونها بقداسة إلهية، أن الحاكم مجرد بشر وأنه وكيل عنهم وأن مهمته تنفيذ الشريعة ورعايتها، وأنهم مكلفون برقابته والنصح له وتقويمه سرا وجهرا، وأن خروجه عن الشريعة يسقط شرعيته ويبيح الخروج عليه. وهذه الأصول والثوابت لم تصل إليها الأنظمة المعاصرة حتى الآن، ويبقى على المسلمين مهمة الاجتهاد المعاصر في التحقيق الأمثل لهذا النموذج، كتدبير شأن اختيار الحاكم وتدبير طرق رقابته وتقويمه، ومقاومته وعزله.

١٣ وبملاحظة التطبيق التاريخي للنموذج الإسلامي في مقابل النظم الأخرى بما فيها الديمقراطية المعاصرة، يمكن القول بوضوح بأن أشد حكام التاريخ الإسلامي استبدادا كانت صلاحياته أقل كثيرا من أكثر حكام الديمقراطية المعاصرة، وهذا الحاكم الأشد استبدادا في الحضارة الإسلامية كان محكوما في تصرفه -رغبا أو قسرا- بقيود أخلاقية لا يلتزم بها أكثر حكام الديمقراطية المعاصرة.



١٤ تتمثل المعضلة الأساسية في الواقع المعاصر في أن الاستعمار الأجنبي والأنظمة التي أنشأها في بلادنا قد أزاحت هيمنة الدين من واقعنا، لتحل محلها هيمنة الدولة، وعملت الدولة بكل طاقتها على أن يتحول الدين إلى شأن شخصي وطقوس شعائرية لا دخل لها في المجال العام، إلا أن يكون هذا التدخل في خدمة الدولة، وبالتالي يصير الدين خادما للدولة بدلا من أن تكون الدولة خادمة للدين.

(١٥) وحيث جرت إزاحة الدين فقد ارتكبت هذه الدولة الكثير من الجرائم في حق الأمة، ولكن هذه الجرائم كانت تُقَدَّم باعتبارها حداثةً وتطورًا وسياسات دنيوية. ومن هذه الجرائم التعدي على كرامة الناس وحريتهم بالتدخل المتغول في شؤونهم ومنعهم من التنقل ومن الزواج ومن التجارة ومن البناء ومن التدريس ومن أي نشاط بدون تصريح مسبق، وإجبارهم على أنشطة اقتصادية وتعليمية وثقافية تحددها هي، ومنها التعدي على أموال الله كالأوقاف وفرض الضرائب عليهم وهو عـدوان على أمـوال الناس بغير حق، فضلا عن إشاعة الفاحشة والانحلال والتفلت الأخلاقي، وغير ذلك كثير. إلا أن المشكلة الأساسية أنه لا يمكن تقييم هذه الأفعال على أنها جرائم إلا بوجود الميزان الإسلامي، فإذا فُقِد هذا الميزان أو أزيح فإن هذه الأفعال تُصَوَّر باعتبارها سياسات حديثة!



(١٦) وهذه الدولة التي صنعها الاستعمار هي ذاتها وحدة في شبكة دولية أسس لها هذا الاستعمار الأجنبي وسمَّاها "النظام العالمي"، وفي هذا النظام العالمي يتجسد معنى الطغيان الذي حاربه الإسلام، فقد وضع المنتصرون بعد الحرب العالمية الثانية جملة من الوثائق والقواعد والنظم التي ترسخ هيمنتهم على العالم، وقدموها باعتبارها "النظام العالمي" و"الثقافة العالمية" و"القانون الدولي" و"الشرعية الدولية"، وأعطوا لأنفسهم حق معاقبة الخارج عليها بأنواع العقوبات التي تبدأ بعدم الاعتراف وتمر بالحصار وتنتهي بالاحتلال العسكري.

(١٧) بُني النظام السياسي الإسلامي على نظريته السياسية، وكان تطبيقا عمليا لها، وقد وقع فيه سائر ما يقع في أي عمل إنساني، وهو وجود مسافة بين التنظير والتطبيق ناتجة عن الخطأ والقصور الذي يصيب أي عملية بشرية، ولكنه مع ذلك ظل أفضل نموذج تطبيقي لتجربة سياسية في التاريخ {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، وبينما تمثلت لحظته النموذجية في عصر النبوة ثم عصر الخلافة الراشدة، فقد بدأ النقصان التدريجي مع عصر الدول الأموية والعباسية والعثمانية، ثم انهار مع سقوط الخلافة الإسلامية (١٩٢٤م).



(١٨) تمثلت أهم ملامح النظام السياسي الإسلامي في التطبيق العملي لكون الأمير وكيلا عن الشعب، يأتي لهذا المنصب باختيار الأمة وتفويضها، ويظل تحت مراقبتها ولها حق نصحه وتقويمه، وحق مقاومته وعزله إن خرج عن الشريعة، ومع أنه قد حصل انحراف مبكر لمسألة اختيار الحاكم، إلا أن ذلك لم يتحول أبدا إلى عمل مشروع في كتب الفقه والسياسة الشرعية بل ظل هو خلاف الأصل وجائزا للضرورة، ولم يستطع ملك أو سلطان مهما كانت إنجازاته أن يبدل الأساس العقدي -الفكري والنظري- فيجعل نفسه مكتمل الشرعية وقد جاء بالتغلب.

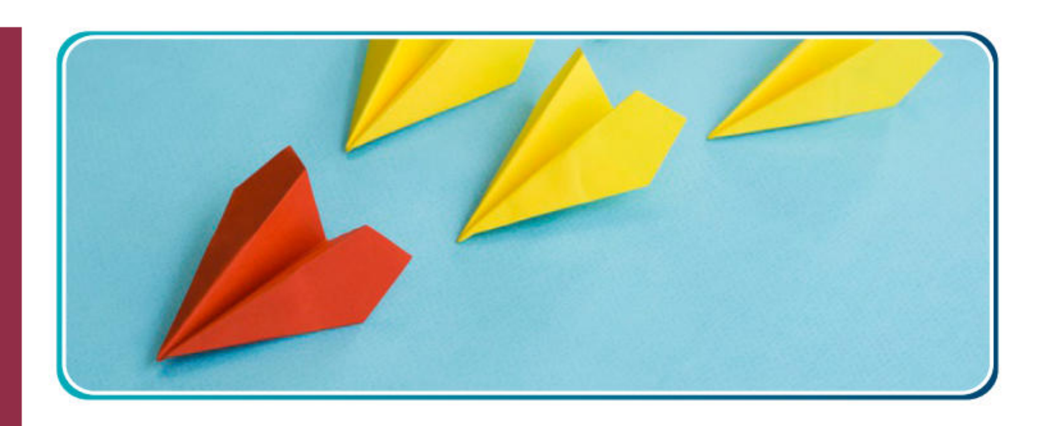
(١٩) كذلك تمثلت في كون النظام السياسي الإسلامي قد حقق أكبر قدر معروف من التمكين المجتمعي في أي نظام سياسي، لقد كان من آثار العبادات والمعاملات الإسلامية أن حققت تلاحما عظيما وقويا بين أبناء الأمة مما جعل الطغيان عليهم لا يقارن بالطغيان الذي وقع على أمم أخرى في فارس والهند والصين وأوروبا،

ولم يوجد في العالم الإسلامي قط طبقية أو عبودية على النحو الذي وُجِد في الأمم الأخرى، بل ولا حتى وُجِد في الديمقراطية المعاصرة. لقد كانت الصلاة والزكاة والصيام والحج تزيد يوميا وشهريا وسنويا من التلاحم الإنساني بين عناصر الأمة، وكانت تعاليم صلة الرحم وحسن الجوار والتكافل والإنفاق بالصدقة وإقامة الأوقاف وعمل الخير وتقديم المعونة تزيد من التكتل الجغرافي والقبلي لأبناء الأمة ليكونوا مجتمعا متماسكا. وهذا كله يجعل الطغيان على هؤلاء والاستبداد عليهم عملية صعبة على أي مستبد، ومحفوفة بالمخاطر.



٢٠ وحقق النظام الإسلامي أكبر قدر معروف في تقليص صلاحيات السلطة، فلم تكن السلطة في الحضارة الإسلامية تتغول على أنشطة المجتمع العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يستطع حاكم مسلم مصادرة الأوقاف التي كانت تمثل تمويلا ذاتيا واستقلالا ماليا للمجتمع، كما أن ما فُرِض من الضرائب والمكوس في فترات ما لم يتمتع أبدا بالشرعية ولم يستقر لفترة طويلة، وظل المجتمع حتى في حالات الضعف والانهيار العسكري قادرا على مواصلة العطاء الحضاري.

٢١ هذه الملامح العامة، التي نضطر لشرحها لعموم الجهل بها في الواقع المعاصر، ترسم ملامح النظام السياسي الذي نطمح إليه، فهو النظام الذي يقلص مساحات السلطة وتغولها، ويعيد تمكين المجتمع ويقويه، وهو ما يترتب عليه بالضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية والتوزيع الطبيعي للثروة، كما يتحقق به وقف التغول السلطوي على النشاط المجتمعي.



٢٢ وهذا النظام الذي نطمح إليه لا يمثل إنقاذا لأمتنا وحدها، بل نحن نقدمه لكل العالم إنقاذا لهم، ونرى أن كل مجهود المجتمع المدني في الديمقراطيات المعاصرة، وكل الأفكار التي قامت عليها النقابات والجمعيات الأهلية والأنشطة الاجتماعية لا تحقق جزءا بسيطا من التلاحم والتماسك الذي يحققه النظام الإسلامي، فنحن نؤمن أن هذا النظام ينقذ كل البشر من الاستبداد والطغيان الذي يهيمن عليهم، والذي يتزخرف ويتزين بشرعية شعبية وهمية من خلال عملية انتخابات مزيفة تجري تحت التحكم الكامل لأصحاب النفوذ والتأثير.

٢٣ وعلى هذا فالنظام السياسي الذي نأمله هو الذي تقل فيه صلاحيات السلطة إلى الحد الأدنى، ويزداد فيه تمكين المجتمع إلى الحد الأقصى، ونرى أن تطبيق القيم والنظام الإسلامي هو السبيل الوحيد الكفيل بالوصول إلى هذا الهدف.

٢٤ نرى أن السلطة السياسية يجب أن تتقلص إلى وزارات محدودة تنظم قطاعات: الجيش والشرطة والقضاء والمالية والخارجية. وهي القطاعات التي تقوم بمهمتي حفظ الأمن والدفاع وما يتعلق بهما. بينما يوكل تنظيم قطاعات التعليم والإعلام والثقافة والصحة والزراعة والصناعة وبقية النشاطات إلى العمل المجتمعي والأهلي والخيري.

(٢٥) ومع ذلك، فإن القطاعات التي تتولاها السلطة لا تُنْتَزَع من المجتمع كلية، وإنما المجتمع مساند لها وداعم بمجهوده في وجودها، فمثلا:

- الشعب يجب أن يكون مسلحا ومدربا، فانتشار التسليح والقدرة على استعماله يعصم الأمة من استبداد وطغيان الحكام في الداخل كما يجعل عملية احتلالهم الأجنبي عملية بالغة الصعوبة، ويساعد انتشار السلاح في استتباب الأمن وانخفاض الجريمة، وهذا يرفع عبئا كبيرا من أعباء الجيش والشرطة والقضاء.

- وأعيان الشعب وزعماؤه يجب أن يكون لهم الحق في حل الخصومات والنزاعات من خلال القضاء العرفي والأهلي الذي يقضي بالشريعة، فهذا يعزز الأمن الاجتماعي ويقضي على كثير من أسباب التحايل وهضم الحقوق وبطء التقاضي.

(٢٦) كما أن القطاعات التي يتولاها المجتمع، يمكن للسلطة أن تساهم فيها بالتوجيه والتخطيط والمشاركة لكن دون هيمنة واحتكار:

- فيمكن للسلطة أن تبني المستشفيات وتنشئ المدارس والجامعات والأندية الرياضية والنشاطات الثقافية وغيرها، تنشيء ذلك وتموله من فائض الموارد المالية الشرعية التي ترد إليها.

- كما يمكن أن تشير في كل هذه الأنشطة بالتوجيه والإرشاد لرؤوس الأموال نحو بناء مستشفى بعينها أو في مكان بعينه لحاجة المجتمع لذلك، أو الاستثمار في منطقة بعينها أو مجال بعينه. يمكن لخريطة اقتصادية تضعها السلطة أن تصنع التوازن بين مجالات النشاط الاجتماعي الذي يقوم به المجتمع نفسه.

(٢٧) ويجب أن يكون واضحا أن من مهمات السلطة حراسة الدين ورعايته، ومن ضمن ذلك تعهدها بإقامة الشعائر ورعايتها كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها، وهي أمور تزيد من تماسك المجتمع وصلابته.

٢٨ ولا يجوز للسلطة فرض ضرائب إطلاقا، فهذا من الكبائر في الإسلام، وهناك الكثير من البدائل التي يمكن بها سد عجز ضروري في الموارد كالاقتراض والمشاركات أو إعطاء مزايا بعينها لمن يستثمر في مجال ما لا تتشجع له رؤوس الأموال، فإن لم يكن فقد أجاز العلماء فرض الضرائب على الأغنياء دون الفقراء بقدر الحاجة والضرورة وبشكل استثنائي مؤقت.



٢٩ والسلطة بالأساس لا يحوزها إلا من اختارته الأمة بإرادتها الحرة، ولها الحق في نصحه ومحاسبته وعزله، وآليات الانتخاب والمراقبة والعزل متروكة لأهل الزمان والمكان طالما كان ذلك في إطار الشرع لا خارجا عنه. سواءُ أطلق على هذا اسم "الديمقراطية" أو أي اسم آخر، فالعبرة بالمعاني والمسميات.

٣٠ استقلال الأمة وتحررها هو الهدف الأول والأكبر والأعظم أمام كل مشروع تغيير، ولا يمكن تحقيق أدنى تمكين قبل تحقيق هذا الاستقلال، الاستقلال السياسي والاقتصادي، وهذا الاستقلال السياسي والاقتصادي لا يمكن أن يتم دون قوة العقيدة والفكرة المهيمنة على عموم الأمة وفي الطليعة منها: العاملون والقادة ولا يمكن أن يتم دون قوة عسكرية تنتزع هذا الاستقلال انتزاعا ثم تحميه وتحرسه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (٥٢)





محمد عمارة

...

راهب الفكر وفارس الميدان ٤-٤.

د. وصفي عاشور أبو زيد

في الحلقة الأولى من هذه الدراسة تحدثنا عن قيمة الراحل الكبير د. محمد عمارة الفكرية والاجتهادية، واستعرضنا المسيرة التعليمية له باختصار، وذكرنا مشايخه ومكتبة حازها، فيها أربعة آلاف كتاب في وقت مبكر من حياته قرأها كلها، وطبيعة عمله الوظيفي الذي مكنه من إنجاز سلاسل الأعمال الكاملة، وتأثره بعدد من العمالقة منهم: الأفغاني ومحمد عبده والعقاد والغزالي ..

ثم تناولنا في الحلقة الثانية معالم مشروعه الفكري ببيان معنى "المشروع الفكري"، وذكر معالم هذا المشروع التي تمثلت في: أولا: بيان حقيقة فكرة الإسلام. ثانيا: رصد الواقع وتلبية حاجاته. ثالثا: التصدي للتحديات التي تواجه الإسلام. رابعا: الرد على الشبهات. خامسا: الكتابة عن الأعلام ... وذكرنا أن هذه الجوانب يحتاج كلُّ مَعْلم منها إلى دراسة مستقلة بل دراسات تبين منهجه فيها، وعطاءه الذي أعطاه، والجهد الذي بذله، واستمداد كل محور من هذه المحاور، وامتداداتها وآثارها في الفكر والواقع والحياة، وبيان المآخذ التي تؤخذ على كل جانب سواء أكانت هذه المآخذ نواقص تحتاج لتكميل، أم أخطاء تحتاج لتصحيح، أم غوامض تحتاج لتوضيح، وهو بشر ليس معصوما، ويؤخذ من كلامه ويرد عليه.

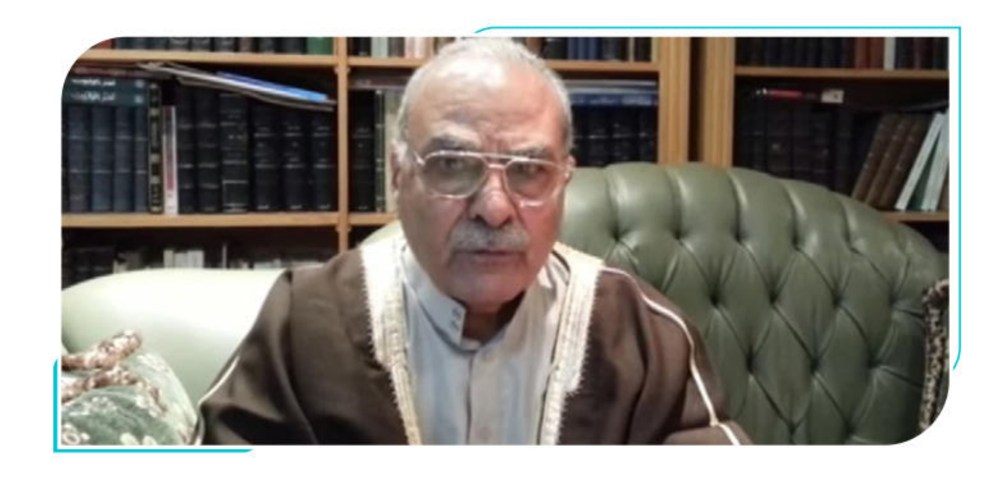
" في الحلقة الثالثة ذكرنا خمسة من المعالم العشرة التي نرى أنها السر الذي ميَّزَ المشروع الفكري للدكتور محمد عمارة، وجعلته بهذا الحجم الكبير، وهذا التنوع الثري، وهذا التعدد في الثغور التي رابط عليها والمعارك التي خاضها. "

وفي هذه الحلقة نكمل المعالم الخمسة الباقية على النحو الذي تناولناها به في الحلقة السابقة، ثم نتناول معالم فروسيته في الفكر والميدان.

بقية المعالم العشرة لتميز المشروع الفكري لعمارة

• سادسا: الجمع بين دراسة التيارات الإسلامية ودراسة التيارات غير الإسلامية:

ومن المجالات التي جمع د. عمارة بينها: مجال دراسة التيارات الإسلامية المعاصرة بجماعاتها وتياراتها التي صرح في أكثر من مقام أنه أحبها وأحبته ونقدها ونقدته وقدم لها النصح فانتصحت أو لم تنتصح، وبين دراسة التيارات غير الإسلامية من ماركسية وشيوعية وعلمانية وإلحادية وغيرها.



كل هذه التيارات درسها د. عمارة وفحصها ووقف على مستنداتها وأدلتها ومواقفها وطبيعة مسلكها، فعن موقفه من الحركات الإسلامية وفي القلب منها الإخوان يقول: "الإخوان يثقون بي ويحبونني، وأنا أعتبر التنظيم كبرى الحركات الإسلامية، خاصة في ظل حالة التشرذم في الحركة والأحزاب، فليس لدينا رصيد في الشارع إلا الإخوان؛ فهم رصيد كبير لا ينبغي أن نفرط فيه، ويجب أن نسانده".

> ولہ کتب عن الصحوة الإسلامية، منها: "الصحوة الإسلامية في عيون غربية"، و"الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري"، و"الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية"، و"الحركات الإسلامية رؤية نقدية".

وعن ممارسة النقد والتقويم للحركات الإسلامية الإخوان يقول: "سبق أن كتبت نقدًا للحركات ومنهم الإخوان؛ لأنهم ركزوا على السياسة بالمعنى الدارج، وأهملوا المشروع الإصلاحي، كما أهملوا الحديث عن الاحتلال الذي تعيشه الأمة والقواعد العسكرية التي تنتشر في كل بلاد الأمة، والأساطيل التي تنتشر في البحار والمحيطات .. أيضًا الإخوان أهملوا العدل الاجتماعي، رغم أنني حين كتبت عن حسن البنا وجدته يطالب بالإصلاح الزراعي قبل الحزب الشيوعي المصري، وكان لديه برنامج اجتماعي ثوري، وكذلك خاض الشيخ الغزالي معركته ضد الظلم الاجتماعي، وحتى سيد قطب كتب ضد الظلم الاجتماعي، ولكن كل هذا غاب".

أما عن حياته مع التيارات غير الإسلامية التي انتهت معايشته لها إلى "التيارات الإسلامية" و"الفكرة الإسلامية"، فيقول: "دخلت اليسار لأجل القضية الاجتماعية، ولكن بالقراءة والتأمل في السجن أدركت أن حل المشكلة الاجتماعية يكمن في الإسلام، في نظرية الاستخلاف وليس في الصراع الطبقي والماركسية ... مواقفي في مرحلة اليسار والمرحلة القومية ثم الإسلامية حصل فيها نضج وتطور، لكن لم تكن هناك فواصل حادة بينها. كنت يساريًا بالمعنى الاجتماعي الثوري، وليس بالمعنى العَقَدي فلم يكن هناك إلحاد؛ لأن التجربة الروحية والتكوين الديني الأصيل عصمني من أن أُستوعَب في الفكر المادي والنظرية المادية. عندما أدركت أن حل المشكلة الاجتماعية في الإسلام -وليس في الماركسية- كان هذا بداية النضج في الموقف الإسلامي،

وفي المرحلة الناصرية كان ثمة تركيز على البعد القومي والعربي، وأنا كنت وما زلت أدرك أن القومية دائرة من دوائر الجامعة الإسلامية، فلم يكن هناك تناقض بين الانتصار للوحدة العربية وللقومية العربية وبين الدائرة الإسلامية. في مرحلة اليسار لا أنكر أنه حدث عندي نوع من الغبش الفكري، ومن سلبيات المرحلة اليسارية -بالنسبة لي- أنني كنت أحفظ دواوين شعرية كثيرة، ثم نسيت هذا في مرحلة اليسار لأنني شغلتني المنشورات والنشاط السياسي، ولكن بدأ الغبش الفكري يزول في المرحلة الإسلامية شيئًا فشيئًا، وبعد ١٩٦٧ تراجع المشروع القومي وأصبح التركيز على الدائرة الإسلامية، أيضًا مما عمق موقفي الإسلامي ظهورُ الصحوة الإسلامية في الثمانينيات، وتصاعد التحديات التغريبية للصحوة الإسلامية والحل الإسلامي بعد سقوط الاتحاد السوفياتي في ١٩٩١، الأمر الذي جعلني أفرد العديد من الكتب لمواجهة الفكر التغريبي والرد على غلاة العلمانيين، لكن ظلت الدائرة القومية والعربية، وقضية العدل الاجتماعي والثورة على الظلم الاجتماعي ملحوظة في كتاباتي، كما ظلت الدائرة الإنسانية والتفاعل مع الحضارات المختلفة موجودة في مشروعي الفكري".



وفي سياق آخر يبين أن انتماءه لليسار لم يكن عقديا ولا أيديولوجيا وإنما كان لحمله القضية الاجتماعية والعدالة، يقول: " وعندما ألغيت الأحزاب ومنها مصر الفتاة والحزب الاشتراكي- لم يكن أمامنا لمواجهة الإقطاع إلا اليسار، فقد كان اليسار حينها فارس القضية الاجتماعية والعدل الاجتماعي، وكان له موقف من القضية الوطنية؛ فقد كان ضد القواعد العسكرية والوجود الأجنبي. وكنت قد دخلت اليسار من باب القضية الاجتماعية من باب القضية الثورية".

ولهذا كتب د. عمارة كتبا في مواجهة مشاريع التغريب والغلو التغريبي والغلو العلماني من الرد على نصر أبو زيد (ت ٢٠١٠ م) وحسن حنفي وسعيد العشماوي، وغيرهم، ومما ألفه في ذلك: "التفسير الماركسي للإسلام"، و"فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين"، و"الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين".

وكذلك له مؤلفات عن التسلف والسلفية يقول في هذا: "كتبت كتيبًا عن "سلفية واحدة أم سلفيات"، وكتبت عنها في كتاب "تيارات الفكر الإسلامي"، وكان محمد عبده يتحدث عن أنه سلفي ويريد فهم الدين كما فهمه سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف. كل إنسان سلفي، فكل إنسان له ماضٍ، ولكن ما ماضيك؟ هل هو عصر الازدهار أم عصر التراجع؟ كيف تتعامل مع سلفك؟ هل تهاجر من الحاضر إلى الماضي، أم تستلهم السلف والماضي لقراءة الواقع ولحل مشكلات الواقع؟ ولذلك لدينا سلفيات مختلفة".

وهكذا نستطيع القول إن محمد عمارة استطاع أن يجمع بشكل كامل وواعٍ حقيقةً لا ادعاءً بين دراسة هذه التيارات فكرا وممارسة، تنظيرا ومعايشة، حبًّا وانتقادا حتى غدا هو بذاته رمزا من رموز الحركات والصحوات في عصره، وهذا مكّنه من التأثير فيها وخلع على فكره سمة العملية والفاعلية والحركية.

سابعا: الجمع بين العلم والعمل الميداني:

أما هذه فميزة قلما تتوفر للكثيرين؛ فهي مناط الخيرية، ومعقد الربانية، ومحل التأثير الكبير الفاعل في العقول والقلوب والواقع على السواء.

فعلم بلا عمل لا قيمة له، وعمل بلا علم لا صحة فيه، وعلم وعمل بلا جهاد وصبر وتضحيات لا يقيم القدوة ولا التأثير الحقيقي في واقع الحياة.

وهذا ما دعا ابن القيم يقول واصفا "الرباني": "فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ يعني تعلم الهدى، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على مشاق الدعوة صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ، فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ". [زاد المعاد: ٣/٩. طبعة مؤسسة الرسالة].

"فأما العلم فهو صاحب هذا المشروع الكبير مترامي الأطراف الذي لم يترك فيه جانبا من جوانب الإسلام عقيدة وشريعة، خلقا وحضارة، معاملات وآدابا، بيان حقائق ودفع شبهات، حتى غدا أكبر مشروع فكري معاصر تجاوز الثلاثمائة كتاب بما حقق له التأثير الكبير والواسع."

وأما العمل الميداني فهو الذي شارك في المظاهرات ضد الإنجليز وضد الصهاينة وفي مطالباتهم بإصلاح الأزهر ومناهجه، كما قصده كثير من طلاب العلم من أنحاء الدنيا ينهلون من علمه ويتربون على كتبه وفكره، وكان جوادًا سخيًّا مع كل من قصده.



وحينما سئل عن مقصوده بالمشروع الفكري أجاب إجابة تنبئك عن مركزية الواقع وفاعليته وأهميته في هذا المشروع، يقول: المشروع الفكري هو "أن نبرز حقيقة الإسلام ومعالمه: العقيدة والشريعة والمنظومة الفكرية، والإحياء الإسلامي للمجتمع، والهداية الإسلامية للإنسان، وعالمية الإسلام، وأيضًا فقه الواقع الذي نعيش فيه وإنزال هذه الأحكام الإسلامية على الواقع الذي نعيش فيه، والتصدي للحرب المعلنة على الإسلام. باختصار: ما هو إسلامنا؟ ما هو الواقع الذي نحن بحاجة إلى فقهه وإلى أسلمته؟ وما التحديات التي تواجه هذا الإسلام؟ هذه هي معالم المشروع الفكري".

إن جمع العالم بين العلم والعمل يقيمه قدوة بين العلماء والناس، ويكسبه المصداقية والموثوقية، ويجعل من حياته منارة للعلماء وطلبة العلم، ويجعل فكره وعلمه حيًّا بين الناس يقبلون عليه ويمتحون منه وينتفعون به، ويجعله كالشجرة المباركة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ثامنا: الجمع بين الفكر والأدب والتصوف:

ومن الأمور التي جمعها د. محمد عمارة وانعقدت له وأعطت لمشروعه الفكري ميزة كبيرة مكنته من الانتشار والتأثير والقدرة على التعبير والدخول

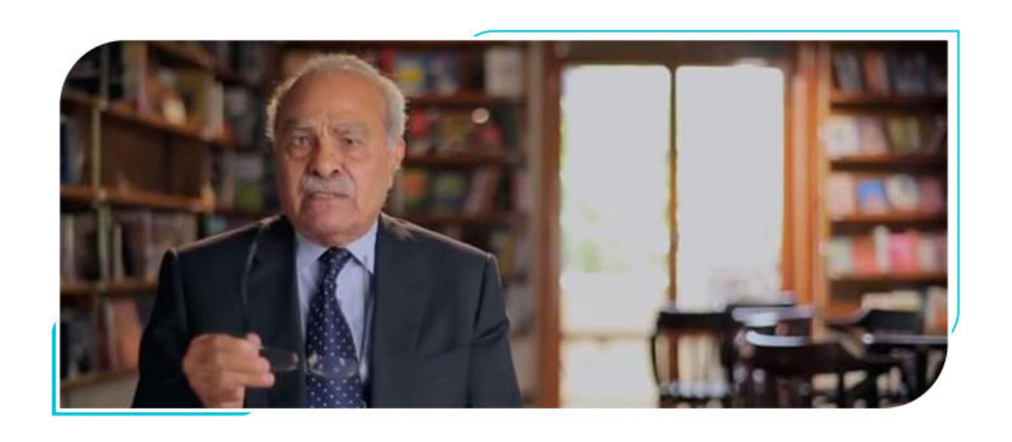
على القلوب والعقول بغير استئذان، هو ذلك الأسلوب الأدبي الأخاذ، واللغة الباهرة التي تتطاوع له، والمفردات المترادفة التي تنقاد له، فيعبر بها عما يشاء من أفكار، ويعرض من خلالها ما يريد من رؤى وآراء، ويقرر بها معاركه الفكرية التي خاضها وانتصر فيها بلا استثناء.

" وقد جمعت هذه اللغة الأدبية إلى جمالها صلابة الفكرة وقوتها، وجلال الأسلوب وجماله، ونداوة المعاني وطلاوتها بما جعل ما يكتبه عمارة وجبة متكاملة للعقل والروح والوجدان جميعا. "

أما الجانب الفكري فحدث ولا حرج، فصاحبنا أول وصف وأكبر وصف وأصدق وصف عليه هو وصف "المفكر"، وقد كان هذا الوصف هو الأثير لديه، وما أنتجه من كتب وبحوث ومقالات يفوز وصف "المفكر" منها بنصيب الأسد.

وأما الأدب فقد حكى هو قائلا: "كنا في السنة الثانية الابتدائية وكان يدرّسنا النحو، ويقرأ لنا المقال الافتتاحي في جريدة المصري، دخل ذات يوم وسأل: من منكم يقدر على أن يشتري كتابًا غير الكتب المقررة؟ فذهبت واشتريت كتاب 'النظرات' للمنفلوطي (ت ١٩٢٤ م)، وكان هذا أول كتاب اشتريته في حياتي من خارج الكتب المقررة، قال لي: أحضره معك، وكنت أقرأ وأطالع فيه، وفي آخر العام الدراسي أقمنا حفلة للشيخ وأهدينا له "علبة بنبوني"، وكتبتُ قصيدة شعر في مدحه".

ويقرر مبينًا فضل ثقافته الأدبية على التعبير المؤثر والمعبر عن أفكاره: "ولأنَّ الطموحَ إلى أن أكون كاتباً - لا موظفاً- قد مَلَكَ عليَّ كياني منذ تلك اللحظات، فلقد توجهتُ إلى عالَم القراءة الحرة، وأعطيتُها أغلب أوقاتي، حتى إني جعلتُ الثقافةَ العامةَ مُعيناً على اختصار الساعات التي أعطيها للكتب الدراسية المقررة .. فكانت الثقافة الأدبية والقراءات الحرة هي التي تُنَمي وتُدَبِّج وتُحَسِّن الإجابات في الامتحانات".



وعن مكتبة الشيخ عبد التواب الشناوي التي اشتراها بعد وفاته وهي تضم أربعة آلاف كتاب، يقول مبينًا حجم الكتب الأدبية التي قرأها: "وبعد استيعاب هذا الكنز المعرفي الثمين والعريض والعميق، وبعد الحفظ لعديدٍ من دواوين الشعر الجاهلي والإسلامي (مثل المتنبي والمعري) وللعديد من نصوص الأدب العربي المختارة كنماذج للبلاغة والفصاحة : بدأتْ على نحو سَلِسٍ وطبيعي الرغبةُ في الكتابة والإبداع, فكتبتُ ونشرتُ - شعراً ونثراً- في عدد من الصحف والمجلات".

وأما التصوف فقد كانت لعمارة تجربة صوفية يقول عنها: "في مرحلة الابتدائي والثانوي -قبل الارتباط باليسار- كانت لدي تجربة في المجاهدة الروحية والتصوف غير الطرقي، وكنت أخطب على المنبر ضد الطرق الصوفية وأعلّم الناس فرائض الدين ومقاومة الظلم، وفي الجمعة التي سبقت ثورة يوليو صادف أن انتقدت الملك فاروق، وعندما عُزل بعد الثورة ظن بعض الناس أنني كنت على علم بتفاصيل ثورة يوليو، وظن آخرون أنني من أولياء الله الصالحين".

ويقرر أيضا إنه لم يُخدَع بالطابع المادي والتفسير المادي لنشأة الخلق، ولا بالتطور التاريخي، يقول: "لأن تكويني الأول كان "تكويناً دينياً" و"تجربةً روحيةً صوفيةً ذاتيةً" .. ولم يكن لي علاقةُ بالجماعات أو الطرق الصوفية, بل كنتُ ضد هذه الطرق باستمرار, وكنتُ أحاربها.. وإنما كانت تجربتي روحيةً أمارس فيها العبادةَ بشكل مكثف".

بل إنه كان يرى أن الاستغراق في العمل الفكري من "السكر الحلال" كما يقول الصوفية الذي ينسيه متاعب الحياة، يقول: "فالعمل الفكري والاستغراق فيه هو علاج حتى للأمراض العضوية التي يعاني منها الإنسان، وإذا كان الصوفية يتحدثون عن الخمر الحلال والسُّكْر الحلال فأنا أرى أن العمل الفكري هو السُّكْر الذي يُبعدك عن منغصات الحياة.".

هذه التجربة الصوفية هي التي جعلت عمارة يقول كلمة تمتع العقل وتشبع النفس عن رسولنا المصطفى إذ يقول: عن علاقته به: "إنني عاشق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، متبتل في محراب سنته وسيرته، متعلق بصفاته وشمائله، مفتون بسجاياه، واقف على أبواب عظمته، مبهور بالتحولات التي أنجزها في مسيرة الدين والدنيا، غيورٌ على دينه ودعوته، مقاتل دون حماه".

ويحكي عن هذه التجربة مستطردا: "هذه التجربة كانت فيها مجاهدات روحية مَنَّ اللهُ تعالى عليَّ فيها برؤية اليقين، عينِ اليقين .. وعرفت معنى "فراسة المؤمن" التي حدثنا عنها رسول الله (ص) .. بل أقول لك : في تلك الفترة رأيت رسول الله (ص) في الرؤيا .. بل ورأيت ليلة القدر، وهي تجربة لن أحكي تفاصيلها, لكنْ أقول لك كيف كنتُ أستعد : بالتعبد بالركعات والدعوات, ومنها دعاءُ صُغتُهُ لنفسي وقتها : "اللَّهم اغفر لي واجعلني من أهل العلم إنك على كل شيء قدير".

ويفرق د. عمارة بين الصوفية الحقة المجاهدة وبين الصوفية الطرقية المنحرفة، يقول: ("التصوفُ" ليس نهجاً واحداً، إذ منه التصوف الذي هو "علم القلوب والسلوك والإحسان المنضبط بضوابط الشريعة وأحكامها [ومقاصدها]".

وهو الذي كان عليه كبار الزهاد والأقطاب والعارفين الذين سلكوا "طريق المجاهدات والرياضات الروحية"، منذ عصر صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وحتى العصر الذي نعيش فيه.



لقد جاهدوا [غلوَّ الغرائزِ والشهواتِ]، وجاهدوا الزخارفِ الدنيوية، وصعدوا بأرواحهم على طريق "المقامات والأحوال"، يبتغون "القُرب والفناء" في صفات "الجلال والكمال والجمال" للذات الإلهية، حتى فني عن مَشَاغِلِهم كل ما سِوَى الله.

وفـي ذات الـوقـت، [وبسبب ما سبق، وليس بالرغم عنه]، عاشوا قضايا الإسلام وأمته، فكانوا أئمة الجهاد الذي خاضته الأمة في مواجهة المخاطر والتحديات، لقد:

- أقاموا الدين في قلوبهم وسلوكهم،
- وجاهدوا أعداءه في ميادين القتال،
- وقادوا الأمة في مقاومة الاستبداد وحكم التغلب والمتغلبين،
- ووسعـوا دوائـر انتشار هـذا الدين الحنيف؛ بالقدوة الحسنة والنموذج الطيب والمثال الصالح،

[باختصار، لقد] كانوا أئمة في "فقه الورع" وفي "فقه الواقع" وفي "فقه الأحكام" على حد سواء.

أما "الطرق الصوفية"، فإنها وإن بدأ الكثيرُ منها بداياتٍ صحيحةً وتجديديةً وجهاديةً (نَشَرت الإسلامَ، وحاربت دفاعاً عنه، كما حدث في الكثير من البلاد الأفريقية)، إلا أن الكثيرَ مِن الذين توارثوا هذه الطرق - باستثناء مَن عصم ربي- قد غرقت في "بحار البدع والشعوذات والخرافات"؛ فخلطت "صلاحاً قليلاً" بـ "الكثير الذي أفسد [الإيمانَ والسلوكَ]" عند [قطاعات كبيرة من] الأتباع والمريدين"). أ.هـ.

هكذا جمع عالمنا المفكر بين العمل الفكري والتشبع من الأدب شعرا ونثرا أسعفه في التعبير عما يشاء من فكر وعلم، وغلف هذا كله وحفَّه بصوفية محببة راشدة لم تجعله ينزوي في زاوية أو ينحرف في ممارسة، وإنما كان هذا التصوف حافزًا له على مقارعة الظلم ومواجهة المستبدين.

تاسعا: الجمع بين السلفية والتجديد:

من الجوانب المتكاملة التي جمع بينها د. محمد عمارة جانب أو مجال "السلفية" ومجال: "التجديد"، وهذا لا يجتمع إلا عند الراسخين الواعين بأهمية الجمع بينهما والصدور عنهما، فالسلفية لا تكون إلا تجديدية، والتجديد لا يكون إلا سلفيًا.

وفي عدد ليس قليلا من كتبه ومقالاته كان يتحدث عن الهوية وحفظها والاستقلال الحضاري والخصوصية الحضارية لا سيما في ظل العولمة التي تريد أن تصب العالم الإسلامي في القالب الغربي، فمن كتبه التي كتبها في ذلك: الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، مقالات الغلو الديني واللاديني، الإصلاح الديني في القرن العشرين، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، وغير ذلك.

ويفرق د. عمارة في مشروعه الفكري الذي جعل الوسطية من ركائزه: "بين "السلفية في الدين" (التي تعود بعقائده وعباداته وقيمه إلى منابعها الأولى الجوهرية والنقية) وبين "سلفية الجمود والتقليد" (التي تحلم بالهجرة من الحاضر إلى الماضي، والتي تخاصم العقل والاستنارة والتقدم والنهوض)".



ويقـرر أنــه لا تعارض بين السلفية الحقة والتجديد الصحيح، يقول:
"بعض الناس يتصور أن السلفية نقيض للتجديد، نقيض للتقدم، بل أصبحت كلمة السلفية عند بعضهم سُبة يُرْمَى بها الغير .. بينما السلف هو الماضي، وليس هناك إنسانٌ بلا ماضٍ .. وليس هناك إنسان إلا وهو سلفي .. لكن القضية هي مَن هو سلفك؟ هل سلفنا عصر التراجع الحضاري أم عصر الازدهار الحضاري؟ .. وكيف نتعامل مع السلف؟ هل أهاجر إلى السلف؟ أم أننا نسترشد بالسلف؟".

"ومن كتبه عن السلفية التي أجاب فيها عن هذه الأسئلة وغيرها وقرر حقائق كثيرة في هذا الشأن، كتبه: السلفية: واحدة أم سلفيات، السلف والسلفية، السلفية "رسائل الإصلاح ٣١ "، وكتب عن السلفية كمصطلح في كتبه التي خصصها للحديث عن المصطلحات."

ومن كتبه عن التجديد أو التي تناول طرفا من قضاياها في ضوء التجديد: التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي أم بالتجديد الإسلامي، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية (رسائل الإصلاح ١٠)، الشيخ شلتوت إمام في الاجتهاد والتجديد (رسائل الإصلاح ١٥)، الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكاني.

إن الجمع بين السلفية والتجديد عند المفكر يعطيه الأصالة والقوة، والرصانة والقدرة، ويمنحه مزيدًا من العمق الذي يمكنه من التأثير والمضي قدُمًا لتثبيت مشروع الإسلام الحضاري الذي يبين الفكرة ويبلغ الدعوة ويقيم الحجة ويدحض الشبهة، وقد كان لعمارة من هذا النصيب الكبير إن لم يكن الأكبر في عصره.

عاشرا: الجمع بين الوطنية والعروبية والإسلامية والإنسانية:

جمع الدكتور محمد عمارة هذه الدوائر في مشروعه الفكري، وإن بدأ في بداية مشواره ومشروعه بالوطنيات والقوميات والعروبيات، لكنه وجد هذا كله وزيادة في الإسلام الذي قاده إلى استيعاب هذا كله وصَهْره، وانتهى به إلى الإنسانية.

ولقد ألف د. عمارة ضمن مشروعه الفكري العملاق كتبا عن هذه الدوائر الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانية، وأحيانا يكتب عن القومية والوطنية، وأحيانا أخرى يبين ما في الإسلام من أبعاد إنسانية، ظهر هذا بجلاء في عدد ليس قليلا من عنوانات كتبه، ومن ذلك: الجامعة الإسلامية والفكرة القومية، الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة أم تفتيت واختراق؟، فجر اليقظة القومية، الإسلام والوحدة القومية، القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب، ظاهرة القومية في الحضارة العربية، حقائق وشبهات حول الوطنية والقومية والجامعات الإسلامية، ظاهرة القومية فى الحضارة العربية، العروبة فى العصر الحديث، الأمة العربية وقضية الوحدة، القومية العربية ومؤامرة أمريكا ضد وحدة العرب، ثورة الاستقلال والوحدة الوطنية، ثورة 9191 والوحدة الوطنية، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، السنة النبوية ومعرفة الإنسانية، مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية، السماحة الإسلامية.

ومما يؤكد على هذا أن أول كتب كتبها عمارة كانت عن القومية ثم ما لبث أن اكتشف وجود هذه الأبعاد والدوائر كلها في الإسلام، يقول:

”وفي تلك الفترة كتبت أربع كتب؛ قبل السجن كتبت كتابًا عن القومية العربية ومؤامرات أميركا ضد العرب، حين كنت طالبًا في دار العلوم، كتبته في مواجهة فكر يساري ينكر وجود أمة عربية، وأنا بتراثي الإسلامي أدركت أن الأمة العربية تكونت بظهور الإسلام، فعكفت أسبوعًا وكتبت هذا الكتاب، وكان أول كتاب في مصر ينشر عن القومية العربية بعد الوحدة بين مصر وسوريا، وطُبع طبعتين وتُرجم إلى الروسية. كتبته في **١٩٥٧** وطُبع في **١٩٥٨** ، وعندما دخلت السجن واستقرت الأمور عكفت على القراءة لتطوير هذه الدراسة، فكتبت كُتُبَ: ’فجر اليقظة القومية’، و’العروبة في العصر الحديث’، و’الأمة العربية وقضية الوحدة’، و’إسرائيل هل هي سامية؟’؛ وهي دراسة تقارن بين المشروع الصهيوني والمشروع الصليبي. ونشرت هذه الكتب بعد أن خرجت من السجن“.



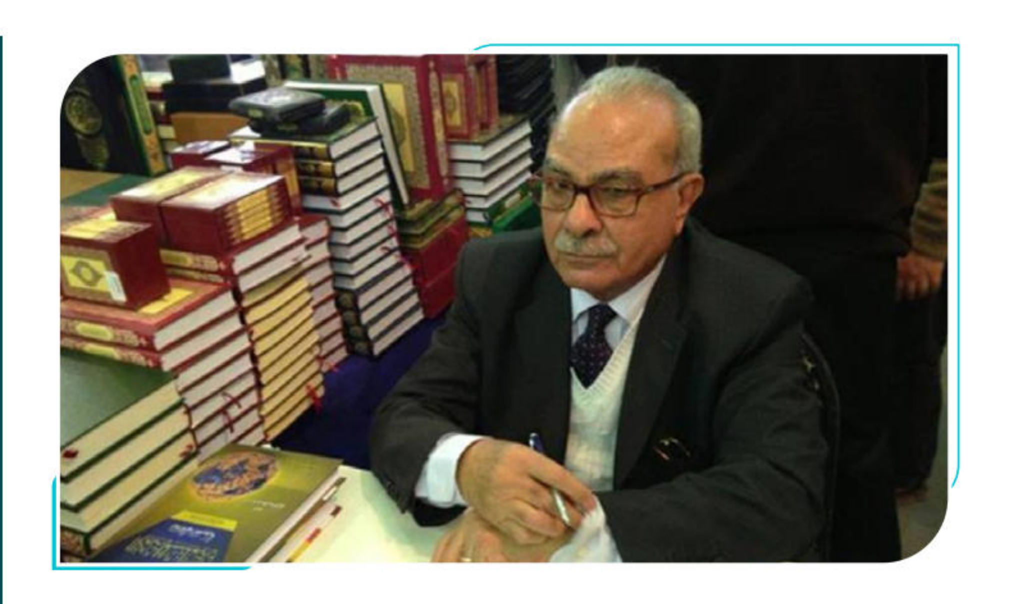
إن الجمع بين كل هذه الدوائر لا يقدر عليه إلا الإسلام، ولا يستطيع تجليته وبيانه وإظهاره بحقيقته وطبيعته غير المتعارضة ولا المتناقضة إلا ”المفكر الإسلامي“ في حين يرفضه المفكرون الوطنيون والقوميون، بلا ينكرونه؛ فضلا عن بيان الانسجام بينها وعدم التعارض فيها، وقد قدم د. عمارة في مشروعه الفكري هذه الدوائر كلها متسقة ومنسجمة ومتكاملة لا متعارضة ولا متناقضة مما خلع على مشروعه ميزة خاصة تتناسب مع هذا التنوع والتكامل والثراء

بعد استعراض هذه المعالم العشرة التي جمع فيها عالمنا ومفكرنا بين مجالات ودوائر متقاربة أو متباينة جعلت لمشروعه هذا الثقل وتلك القيمة الكبيرة، وقد تكون أحيانا هذه الدوائر متعارضة بادي الرأي، وبينا وجه جمعه بين هذه المجالات وطبيعة هذا الجمع وبيان وجوده ضمن مشروعه الفكري، مع بيان أثر هذا الجمع بين هذه المجالات والدوائر على الخطاب الإسلامي والدعوة الإسلامية .. بعد ذلك يطيب لنا أن نختم بالحديث عن عنصر مهم ومعلم بارز في حياة د. محمد عمارة العلمية والعملية، وفي حياة كل عالم رباني مجاهد، وهو الوقوف على معالم فروسيته في الميدان بعد أن تجلت فروسيته في الفكر والقلم.

أولا: فروسيته في الكتابة:

وقبل بيان فروسية الميدان والاشتغال بهموم الأمة على الأرض وفي الميدان نذكر أولا أن روح الفروسية ومسلك الجهاد والدفاع كانت تكتسي بها كتاباته، وكذلك مفرداته التي يختارها لا سيما في كتبه التي يرد فيها الشبهات، أو مؤلفاته التي يظهر فيها عوار التيارات الفكرية المنحرفة سواء أكانت قديمة أم حديثة.

" إن الدكتور محمد عمارة حينما يكتب في قضية أو يتحدث فيها، فلا تشعر أنه كاتب يكتب بقلم، أو مؤلف يحبِّر الورق، أو خطيب يعتلي المنبر، أو متكلم يتكلم في ندوة، وإنما تشعر أنه مقاتل في معركة يحمل السلاح، ومجاهد مرابط على الثغور يحمي الذمار، فترى بارقة السيوف فيما يكتب أو يخطب؛ مبينًا معالم الإسلام، ومجلّيًا محاسن العقيدة، ومرسِّخًا معاقد الشريعة، ومؤسِّسًا فَرَادَةَ الحضارة، بما يملك من حُجج بالغة، وأدلة دامغة، وإحصاءات قاطعة، ونُقُولٍ عن الآخرين باهرة معبرة، كل هذا في حسن عرض، وجمال بيان، وروعة أسلوب. "



ثانيا: أول مقال كتبه كان بعنوان: "جهاد":

من الوهلة الأولى في الكتابة يطالعك تاريخ عمارة بأول مقال كتبه في حياته كان من أجل القضية الفلسطينية، وكان بعنوان: "جهاد"، وهو يحكي قصته فيقول: "حدث أني التقيت بناسٍ من حزب "مصر الفتاة"، وبدأت العمل بالسياسة من خلال الحركة الوطنية في مصر، ومن خلال القضية الفلسطينية. أول مظاهرة اشتركت فيها كانت سنة ١٩٤٦ أثناء فترة المعهد (١٩٤٥-١٩٤٦)، وكانت مظاهرات ضد مشروع صدقي/بيفن حول الجلاء الإنجليزي عن مصر. وفي ١٩٤٧ بدأت أخطب في المساجد ضد اليهود (الإسرائيليين)، ومن أجل القضية الفلسطينية، وكتبت أول مقال بعنوان "جهاد" عن الفدائيين الذين دخلوا فلسطين قبل الجيوش العربية، نُشر في أول أبريل/نيسان سنة ١٩٤٨ في جريدة "مصر الفتاة"، وأعتقد أن نشر هذا المقال حدد مستقبلي ومصيري في علاقتي بالكتابة".

وقد كانت قضية فلسطين من القضايا المجمع عليها من كافة التيارات السياسية والفكرية، ونشأ مفكرنا محبا للحرية والتحرر والجهاد والعدل الاجتماعي.

ثالثا: إسهامه في المظاهرات ورغبته في الجهاد القتالي:

سبقت الإشارة قبل قليل إلى اشتراكه في أول مظاهرة ضد مشروع صدقي بيفن حول الجلاء الإنجليزي عن مصر، كان ذلك عام ١٩٤٦ م وهو ابن خمسة عشر عاما!.

وكذلك في فترة تعليمه الابتدائي كان يشارك في اعتصامات واحتجاجات، يقول: "فتحت تجربة التعليم الابتدائي أمامي أبوابًا كثيرة، خصوصًا أن الأجواء في الأزهر كانت تتسم بالجمود، وكنا ندرس الحواشي والتعليقات، ولاحظت بعد ذلك أن ما يدرس في الأزهر ليس كتب عصر الازدهار الحضاري ولا كتب عصر التجديد، وإنما كتب في أغلبها مؤلفة في عصر المماليك، لذلك كنا نقوم بإضرابات واعتصامات واحتجاجات مطالبين بإصلاح الأزهر وإدخال اللغات الأجنبية".

وكان يتابع أخبار الفدائيين من خلال الصحف، يقول: "وكنت أقرأ صحيفة مصر الفتاة، وأعرف أخبار الفدائيين الذين دخلوا من مصر وسوريا إلى فلسطين، وذلك قبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في مايو/أيار سنة ١٩٤٨ م".

" تطور الأمر بعد ذلك ميدانيا وممارسة إلى التدريب على السلاح وممارسة الجهاد القتالي على الأرض بالفعل، يقول: "عندما احتدَّت أحداث القضية الفلسطينية؛ تطوعت لأتدرب على السلاح وأذهب إلى فلسطين، لكن بسبب السن وأن دسوق كانت مدينة صغيرة لم تتح لي فرصة الدخول إلى فلسطين، وعندما ألغيت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا سنة ١٩٥١ تدربت على السلاح أيضًا، ثم تدربت على السلاح أيضًا للذهاب إلى قناة السويس ومحاربة الجيش الإنجليزي في القواعد العسكرية هناك، لكن حدث حريق القاهرة فأجّلت الموضوع. ولكنني تمكنت من الذهاب إلى القناة لمواجهة العدوان الثلاثي ١٩٥٦ ، حين كانت لي علاقة باليسار المصري الذي كان بينه وبين الحكومة تعاون لمواجهة العدوان الثلاثي". "



رابعا: ممارسته للخطابة الاجتماعية الثورية طوال حياته:

منذ زمن مبكر كان د. عمارة يعتلي المنبر، ويخطب ضد الاحتلال، حتى إنه يقول: "وفي ١٩٤٧ بدأت أخطب في المساجد ضد اليهود (الإسرائيليين)، ومن أجل القضية الفلسطينية". بل إنه كان يخطب لفلسطين ليجمع المال لها من القرى القريبة منه، يقول: "شاركتُ في الدعاية للقضية الفلسطينية, وذهبتُ إلى القرى المجاورة لقريتي لأخطب وأطلب التبرع المادي لدعم الكفاح في فلسطين".

والذي حمل مفكرَنا على الخطابة وممارستها في وقت مبكر من حياته هو رغبته في التغيير والتجديد لما رآه من أفكار مغلوطة وأوضاع اجتماعية غير صحيحة، يقول: "لقد لمستُ في فترة الطفولة والنشأة كثيراً من مظاهر الفهم الخاطئ لتعاليم الدين (والتي كانت نتيجة لظروف طويلة من التخلف)، مما دفعني إلى طريق التجديد والتصحيح .. حتى لقد كُنتُ، منذ بداية عهدي بالخطابة، أخطب على نحو غير تقليدي؛ فلقد كان يُدهَشُ جمهورُ الفلاحين لأنهم لم يتعودوا أن يصعدَ على المنبر إنسانٌ يتكلم في الشئون الاجتماعية والسياسية والعامة .. وبدأت أَعِظُ الناسَ ٣٠ ليلةً في رمضان .. ثم بدأت التجربة

التي بدأتُها في القرية تنضج؛ فتتحول إلى لون من ألوان القيادة السياسية والاجتماعية والفكرية : فأصحابُ المشكلات يأتون, والباحثون عن الفتاوى يأتون, والمشكلات الزوجية صُلحاً أو طلاقاً تنتهي عند الحجرة المتواضعة التي أجلس فيها، والعلاقات والصداقات تنمو بين القرية والقرى المجاورة، وأصبحت شهورُ الصيف التي أقضيها في القريةِ منتديات من الحوار والنقاش الدائم، ومجالاً خصباً للخطابة والموعظة وإمامة الناس".

وقد تطورت طبيعة الخطابة عنده من "مجرد الوعظ" إلى آفاق الإصلاح الاجتماعي كما تبين، يقول عن ذلك: "وأذكر أنَّ مِن ضمن ما قدمتُ للناس في مسجد القرية تفسيراً أدهشهم، لكنه أقنعهم, وذلك عندما قلتُ لهم : "إذا لم تأخذوا من إنتاجكم ما يكفي قوتَكُم وقوتَ أولادِكم, فستذهبون إلى النار, حتى لو كان ذلكم الأخذُ اغتصاباً من المالِكِ للأرض؛ لأنَّ اللهَ سبحانه يُبَشر الذين يَظلمون أنفُسَهم بالنار: "إن الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهِم, قالوا : فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض قالوا : ألم تكن أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً" [النساء ٩٧] .. وأنت إذا لم تأخذ من نتاج عرقكَ ما يكفيك ويكفي أسرتكَ : فأنت تظلم نفسَكَ؛ فأنت عاصٍ لله" اهـ .. وقد كنتُ أرى الفلاحَ يَشقَى ويزرع الأرضَ ويَروِيها بعرقه (على سبيلِ الحقيقة لا المجاز), ثم يَحْصُد, ثم يأخُذُ المالكُ كلَّ هذا الحصادَ ونتيجةَ هذا العرق, ويذهب الفلاحُ آخَر الليل إلى بيته خالي الوفاض, فإذا امتعض أو اعترض : يُطرَد من الأرض ويُلقَى للمجهول .. ومِن هنا كان هذا التفسيرُ الذي قدمتُهُ تفسيراً "ثورياً".

وقد أشرنا سابقا ونحن نتحدث عن تجربته الصوفية ممارسته للخطابة الناقدة للتصوف المنحرف وللملك فاروق معا، وهو ما يزال في التعليم الأولي، يقول: "في مرحلة الابتدائي والثانوي -قبل الارتباط باليسار- كانت لدي تجربة في المجاهدة الروحية والتصوف غير الطرقي، وكنت أخطب على المنبر ضد الطرق الصوفية وأعلّم الناس فرائض الدين ومقاومة الظلم، وفي الجمعة التي سبقت ثورة يوليو صادف أن انتقدت الملك فاروق، وعندما عُزل بعد الثورة ظن بعض الناس أنني كنت على علم بتفاصيل ثورة يوليو، وظن آخرون أنني من أولياء الله الصالحين".



وإبان أحداث يوليو ١٩٥٢ م يقول مبينا تطور الخطابة عنده إلى شكل سياسي ثوري: "وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ م أثناء دراستي الثانوية، ولقيامها معي حادثُ طريفٌ: فقد كنتُ أخطب الجمعةَ بشكل منتظمٍ خلال الإجازة الصيفية بمسجد القرية، وكنتُ الوحيدَ الذي لا يدعو للمَلِك على المنبر، وكان هذا شيئاً مُستغرباً، ولكني التَزَمْتُهُ .. والمثيرُ أنه في يوم الجمعة وخلال الأسبوع الذي سبق الثورةَ مباشرةً كان في الخطبة ما يُشبهُ النقدَ اللاذعَ للملك فاروق، ودعوتُ اللهَ فيها أن ينصرَ الأمةَ العربية والإسلامية على أعدائها وبيد أبنائها المخلصين .. وعندما قامت الثورة: تصورَ مَن في القرية أنني كنتُ على علمٍ أو على اتصالٍ بها، وأخذوا يقارنون بين ما قلتُهُ في الخطبة وبين ما حدث؛ ليؤكدوا على هذه القناعة".

ظلت الخطابة مهارة ورسالة يمارسها مفكرنا في قريته حتى أواخر حياته، كان إذا زار قريته خطب فيها الجمعة، وخطب العيدين، وما زال كذلك حتى لقي الله تعالى.

خامسا: فروسيته في المناظرات والفضائيات:

ومن معالم فروسيته ما اشتهر به من مناظرات لم يحظ أحد من معاصريه بالقدر الذي حظي به د. عمارة منها اللهم إلا أحمد ديدات - رحمهما الله تعالى

وقد تابعت الجماهير الواسعة مناظراته مع نصر أبو زيد وفرج فودة ونوال السعداوي وكمال زاخر وفؤاد زكريا وآخرين، وكيف خرج من هذه المناظرات كلها منتصرا مظفرا حتى قال عنه الشيخ الكبير محمد الغزالي مداعباً إياه في لقبه: (أنت لست «عمارة»؛ أنت قلعة حصينة شامخة شديدة البأس؛ تكر منها على أعداء الإسلام وشانئيه، ولا ترضى الإياب إلا بعد أن تتركهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية).

كما أنه حين يستضاف وحده في أي لقاء تليفزيوني يتحدث حديثا قويا حاشدا متحمسا يأخذ عقلك وقلبك ووجدانك بما يقوله من فكر، وما يقيمه من حجج وأدلة، وما يدفعه من شبهات أمام العلم الراسخ الذي يبدده ويذهبه بل يجعله أضحوكة وأثرا بعد عين.

سادسا: فروسيته في المعارك التي خاضها:

ومن معالم فروسية مفكرنا العظيم الميادين التي قاتل فيها بقلمه وفكره، والمعارك التي خاضها، ومن ذلك معركته مع الكنيسة المصرية، ومعركته مع الشيعة، ومعركته مع التيارات السلفية الجامدة، ومعركته مع العلمانيين واللادينيين، ومعركته مع الأنظمة المتتالية، وموقفه من الانقلاب العسكري في مصر وبيانه الشهير الذي سجله للتاريخ، والقضايا التي أثارها على صفحات مجلة الأزهر حين تولى رئاسة تحريرها..

كان محمد عمارة هو الفارس المغوار في هذه المعارك، وقد أقض مضجع الكنيسة في مصر، وكذلك أقض مضجع الشيعة حتى زاره الملحق الثقافي الإيراني في القاهرة ورجاه أن يخفف من حملته حينما كتب عن الشيعة وفتح ملفها في أعداد مجلة الأزهر والكتب التي أصدرها هدايا مع أعداد المجلة.

***



لا نجد في ختام هذه الدراسة أفضل من كلمات إمامنا الشيخ يوسف القرضاوي كتبها عنه في كتاب أرى أن عنوانه دال على مسيرة عمارة الفكرية والجهادية وهو: "محمد عمارة الحارس اليقظ المرابط على ثغور الإسلام"، قال في مقدمته: "هذه هي الصحائف التي كتبتُها في شأن أخي وصديقي العالم الباحث الداعية المناضل الشيخ الدكتور محمد عمارة، الذي ادَّخره القدر الإلهي للدفاع عن هذا الدين العظيم، الدين الخاتم الذي أكرم الله به هذه الأمة، وأتمَّ عليها به النعمة، حين قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة:٣]. عمارة هو الحارس المغوار، والفارس المختار، والسيف البتار لإرهاب أعداء هذا الدين العظيم، دين الإنسانية جميعا، ودين القرون كلِّها، ودين البشر حينما تُظلِمُ عليهم الدنيا، وتلتبس عليها الطرق، ولا يجدون النور والضياء إلا في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، رسالة الإسلام الأصيلة: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[النور:٤٠]".

مراجع الدراسة:

الدكتور محمد عمارة الحارس اليقظ المرابط على ثغور الإسلام (كتاب) - د. يوسف القرضاوي.

المشروع الفكري للدكتور محمد عمارة (كتاب) - د. يحيى رضا جاد.

العلامة الدكتور محمد عمارة في رحاب الله (مقال). د. إبراهيم البيومي غانم.

محمد عمارة سيرة ومسيرة (حوار الجزيرة) - د. معتز الحطيب.

محمد عمارة جهاد في خدمة الإسلام (مقال) - أشرف عيد العنتبلي.

حلقة برنامج وحي القلم: محمد عمارة .. الاعتكاف في محراب الفكر. قناة الجزيرة. تاريخ البث ٢٠١٥/٧/١٣.



قـرار التـرشح للرئاسـة والمراجعات الانهزامية

•• د. عطية عدلان ••

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

هل كان مغرماً أم مغنماً قرارُ الترشح للرئاسة؟ هل كنّا معشر الإسلاميين مبادرين إلى الخير والمصلحة عندما ولجنا بكل قوتنا إلى هذا الميدان؟

أم إنّ العجلة الممزوجة بالنزق والطيش والتهور دفعتنا من ظهرنا إلى حلبة من الصراع الذي لم نتأهل له؟ وهل كان «الإخوان المسلمون» محقين وموفقين في قرارهم أم إنّ الصواب جانبهم وهجر فراش الشورى والإرشاد وسائر منابع الرأي والسداد؟

تساؤلات مشروعة عندما تأتي في سياق التقييم الكامل الشامل للتجربة برمتها، وعندما تنتظم في إطار مراجعة حقيقية تحظى بالتجرد وتسعد بالاستقلال وتخضع لقواعد المنهج العلميّ في النقد والتقييم.

ولا مانع من إثارة تساؤلات أخرى تأتي معها بالتوازي على خط المراجعات، من مثل: ألم يكن من العقل والحكمة أن يبادر الرئيس إلى الإعلان عن انتخابات رئاسية مبكرة؛ إذْ عاين الأزمة واطلع على أبعادها وتبين له أنّ التجربة في طريقها إلى الزوال؛ فيكسب بذلك لنفسه ولجماعته ولسائر الإسلاميين في مصر وغيرها أسهماً من الاحترام والتقدير، ويعود بالجماعة وحلفائها إلى مواقعهم القديمة من طريق آمن، ويغتال كثيراً من المؤامرات التي كانت تحاك للعمل الإسلاميّ، ويضع المناوئين وجهاً لوجه أمام التحدي الذي نراهن على أنهم أقل بكثير من مواجهته؟

وإذْ لم يفعل ولم نفعل وآثرنا جميعاً الصمود؛ ألم يكن من اللائق بنا والواجب علينا أن نتخذ للصمود آلياته وأدواته على الأصعدة المختلفة؟ لماذا لم يتخذ الرئيس يوم إعلان العسكر عن نيته ببيان ٧/١ قراراً بعزل وزير الدفاع ومن حوله؛ ليضع الخائن العميل في إشكالية دستورية ويعرقل مسيرة العسكر؟

ولماذا لم نتخذ نحن قراراً بالمبادرة إلى حماية الرئيس والخروج به من القصر أو الانحياز المبكر إلى القصر قبل انتهاء مهلة الـ ٤٨ ساعة؟ وإذْ لم نفعل وغفر الله ذنوبنا وجبر كسرنا فأمدنا بالملايين من أبناء الشعب؛ فلماذا لم يكن لنا حراك يوجع النظام وينهك قواه في وقت لم يكن قد استفاق فيه من آثار ضربات الثورة؟!

كلها تساؤلات مشروعة وموضوعية ولابد من استصحابها في مسار المراجعة، أمّا عندما تختزل المراجعة في بحث مسألة «قرار الترشح للرئاسة» فإنّ هذا المسلك المنحرف سيقودنا إلى تزوير الحقائق وتسطيح القضية، ولاسيما مع القفز على أصل الإشكال المطروح؛ وصولاً إلى البحث عمّن كان السبب في الذهاب إلى قرار الترشح؛ لتنحصر المراجعة في اتهام ودفاع، اتهام بعدم اتباع آليات الشورى الصحيحة لاتخاذ القرار، ودفاع بأنّ القرار إنّما جاء عبر الشورى الصحيحة التي استكملت أركانها، بما يعني أنّ الإجماع منعقد على أنّ القرار كان خاطئاً، بينما موضع الإشكال هو: هل كان وراء القرار الخاطئ مَنْ يُسئل عنه ويتحمل عبئه؟ أم أنّ الناس جميعاً أبرياء والأمر بمحض القدر الذي يجب التسليم له!!

وإذا كان الأمر على هذا النحو فلماذا نغضب وعلى ماذا نعترض؟! وما جدوى الحديث عن الشرعية وعن رئيس قتل مظلوماً، وعن خائن وعميل انقلب عليه؟ وفيم المعارضة للانقلاب والاعتراض عليه وعلى أفعاله؟! إنّنا من حيث ندري أو لا ندري نضعف من موقفنا ونحبط حقنا في المعارضة السياسية؛ إذْ لا يحق لمن لا يملك القدرة على أن يكون في الحكم أن يعترض على من يحكم، وإذاً لن نكون اليوم منسجمين مع خطابنا هذا إلا بأن نتخلى عن كل ما نثيره في إعلامنا؛ لنتفرغ للدعوة والتربية ونعلن انسحابنا من الحياة السياسية برمتها والعودة إلى الدعوة، وتنحصر مطالبنا في الأمور الحقوقية والإنسانية.

إنّ مشكلتنا في كل مراجعاتنا أنّها تأتي تحت ضغط نفسيّ رهيب؛ فلا تتمحض للمراجعة والتقييم، ولكن يذهب جلّها في إرضاء النفس وتسكين ثائرتها، نحن لا نملك الشجاعة الكافية لمواجهة أنفسنا بأخطائنا، ولا نملك

القدرة على إدارة عمل جماعيّ يستهدف التقييم والتقويم، ومن ثم فإنّ الهروب بصورة أو بأخرى يكون هو العلاج المسكن لآلام الشعور بالذنب والتقصير، ولا أحسب هذا المسلك الذي نسلكه في قضية قرار الترشح للرئاسة إلا هروباً؛ إمّا بتعليق التبعة على شماعة القدر أو بجلد الأموات.

إنّ الله تعالى عندما أمر بالشورى أدغم هذا الأمر الهام بأمر آخر لا يقل عنه أهمية وفاعلية، وهو المضيّ فيما تشاور فيه أهل الشورى بلا تلعثم ولا تردد؛ فقال تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) (آل عمران ١٥٩)، هذا ما يقتضيه النظر البعيد وتستدعيه الهمة العالية ويحتمه ضرورة عدم الالتفات إلى الخلف، وقد تَعْجب من تصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم عندما أصرّ على الخروج اتباعاً للشورى التي جاءت على خلاف رأيه وعلى خلاف الرؤيا التي رآها، ولم يلتفت للشباب عندما عرضوا عليه رجوعهم عن رأيهم إلى رأيه، وصاح فيهم عندما أكثروا عليه: (مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَعَ أَدَاتَهُ بَعْدَ أَنْ لَبِسَهَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ)[١] ثم ينزل القرآن ليجري مع المؤمنين مراجعة تكشف أخطاءهم التي كانت سبباً في الهزيمة، ثم لا يتعرض للشورى التي نتج عنها قرار الخروج للقاء العدو خارج المدينة، ذلك القرار الذي جاء عائماً فوق ثبج ثورة الشباب الذين رغبوا في الفوز بشرف القتال خارج المدينة عوضاً عن قعودهم عن بدر العظمى، بل جاء الأمر بالمشاورة والعزم والتوكل على الله.

كلا والله ما أخطأنا بإقدامنا على تحمل مسئولية البلاد في ظل شغور الزمان من القادرين على تحمل العبء والمسئولية، ولا أخطأنا بدفعنا رجلاً منّا نعرف صدقه وأمانته وعلمه وحكمته ليتولى الحكم وينهض بالمسئولية، ولكنّ أخطاءنا جاءت في موضع آخر، غالباً ما نمارس الهروب منه وتحويل الوجه عنه، فنحن إذا لا نملك الشجاعة على فتح الملفات القوية المؤثرة ونمارس الجلد على غير ظهر الجاني.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (١٨٢٣١) المستدرك للحاكم (٨٨٥٢) مغازي الواقدي ٤١٢/١ الرحيق المختوم ٢٨٢



إنّ الخسارة التي ستحل بنا لدى الإقرار بخطأ الترشح للرئاسة ولدى النشر والتسويق لهذا الإقرار تتجاوز حدود التغطية والتستر على الأخطاء الحقيقية وتتخطاها إلى مفسدة ضياع الحقّ التاريخي والمكتسب الاستراتيجيّ، وهو الشرعية التي حققها الشعب في تاريخ مصر المعاصر مرة واحدة بعد ثورته، والتي يجب أن تبقى أيقونة الثورات في المرحلة القادمة، والتي تُعَدُّ في رصيد الحركة الإسلامية حقاً تاريخياً يثبت عمق علاقتها بالمجتمع ومدى تجذرها فيه، ويمنحها على أرض الصراع قوة إقناعية هائلة.

نحن لم نحسن اغتنام الفرصة السانحة، ولم نفلح في إدارة الصراع، وأقول إدارة الصراع لا إدارة الدولة، فإنّ إدارة الصراع هو الأقوى وهو المدخل إلى إدارة الدولة، هذا هو منبع الأخطاء التي تراكمت وتكدست بشكل جعل من المستحيل الإفلات من نتائجها الحتمية السيئة، فإذا كنّا جادين في المراجعات فهلموا إلى مناقشة الأخطاء التي كانت سبباً في إفشال التجربة، ودَعوا عنكم هذا الذي تسودون به الصفحات وتعكرون به الفضاءات.

وعليكم قبل ذلك بالعودة إلى الجماعة والوحدة والألفة؛ حتى لا تبقى المراجعات تقاذفاً بالاتهامات وتنابزاً بالألقاب وتبادلاً للشتائم، فمن رأى في ذلك حرجاً وأحس منه ضيقاً فليعلم أنّه هو ذاته الحرج والضيق والعنت، بل وموضع العطب والعطن.



الرئيس
محمد مرسي
..
الشهيد
الذي
وفَّى
..

د. مجدي شلش

تتفق أو تختلف حول إدارة السنة التي عاشها الرئيس محمد مرسي في الحكم من حيث الإيجابيات أو السلبيات، لكن المتيقن منه أن الغالب ممن تكلم متفقا أو مختلفا بتقييم المدة الزمنية التي حكمها، جاء بانطباعات أو قيّم دون معلومات تجعل التقييم قائما على أساس علمي يؤدي إلى نتائج صحيحة أقرب للصواب.

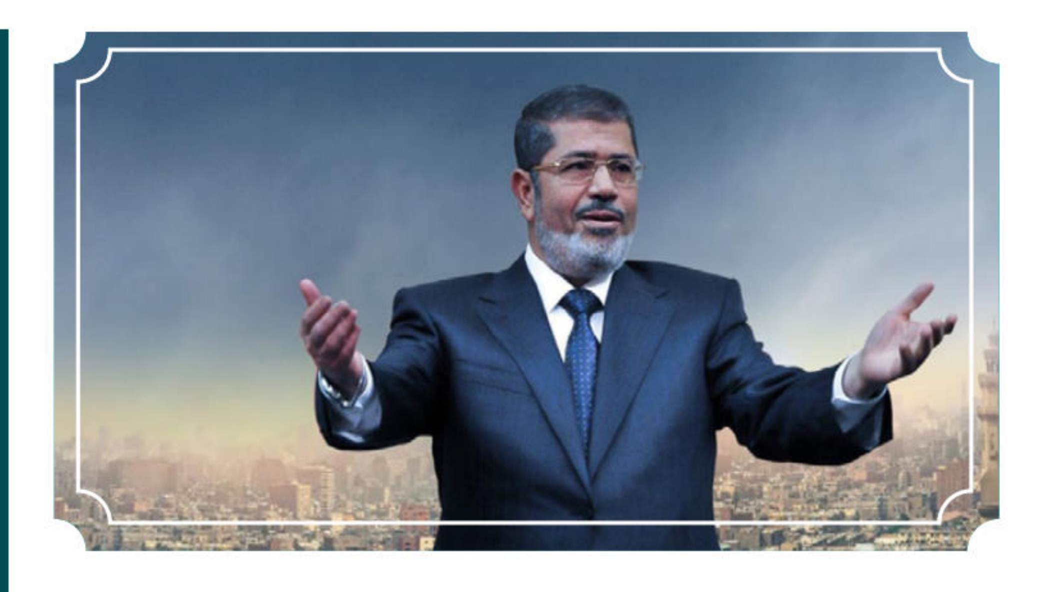
آفة غلبت على الكثير، الكلام فيما لا يعلم، الكل أصبح عالما بالكل، تعلو الصيحات بالموافقة على حسن الإدارة وأنه رحمه الله بذل أقصى الوسع في إدارة الدولة، حيث القرارات كانت صائبة تماما، وأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، حيث التحديات والأزمات الحقيقية والمفتعلة، فالرجل اجتهد فأصاب قدر مكنته وحسب طاقته، وطائفة أخرى من الناس تحمله فشل الثورة، وأن قرارته واختياراته للأشخاص كانت متأخرة وغير موفقة.

الكل يعجن الكلام بحسب رؤيته ومشاعره ومعرفته، ويبقى التقييم الدقيق لهذه المرحلة الزمنية المهمة في تاريخ الثورة المصرية خصوصا ومصر عموما يحتاج إلى ذوي التخصص من أهل العلم والسياسة في ضوء الواقع وتحدياته وفرصه ومميزاته.

هذا كله لا يمكن أبدا أن ينفي عن الرجل أنه وفّى تجاه كثيرا من القضايا، ومنها:

أولا: وفّى نحو إيمانه بالثورة من حيث المفهوم والمعتقد، وأنها الحل الأمثل للتغيير في ذلك الوقت، وإن اختلفت معه في بعض الممارسات أو القرارات التي اتخذها كما قلنا، إلا إنه دائما ما أعلن أن ثورة ٢٥ يناير وتحقيق مبادئها دونها الحياة والرقاب، وأن شرعيته التي استمدت من الثورة لن يتنازل عنها أبدا ولو كلفته حياته، والرجل وفّى أحسن الوفاء، فما لانت له قناة أو عزيمة تجاه إيمانه بثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ م.

ثانيا: الرجل أحسبه وفّى لدماء الشهداء الذين صعدت أرواحهم في ثورة يناير وما بعدها، لم يتنازل عن القصاص لدمائهم الزكية، قد تختلف معه في كيفية التعاطي مع القصاص، إلا أنه من المؤكد أن إيمانه بالقصاص لهم كان حتميا.



وأقرب الأدلة على ذلك أنه صار شهيدا من أجل ما يعتقد ويؤمن بحسب ظنه وعلمه، الرجل لم يخن الله أو رسوله فيما أمر بحق الثورة أو القصاص للشهداء، الدكتور مرسي الشهيد بإذن الله يمثل مرحلة من مراحل الثورة، وطريق من طرقها، الثورة التي تغير الحال من الفساد والظلم والاستبداد إلى الصلاح والعدل والمساواة ليست أمرا سهلا أو هينا في إحداث حالة التغيير الجذري في واقع الأمة، إنما تمر بمراحل ومنعطفات كثيرة، كان أحد مقومات ثباتها واستمرارها وفاءَ ذلك الرجل وثباته أمام أكبر طغيان وظلم عرفته مصر.

ثالثا: الدكتور الشهيد مرسى وفّى نحو ما يؤمن به من إسلام حضاري إنساني يؤمن بقيمة الإنسان من حيث كونه إنسانا، لا بحسب معتقده أو خلفية سياسية معينة، المدة التي حكمها رحمه الله تعالى لم يظلم فيها إنسانا بسجن أو تقييد حرية، العام الذي حكم مصر فيه أصبح كل عاقل الآن يعلم مدى الحرية التي عاشها أبناء الوطن في التعبير عن آرائهم، لم يفعل هذا تصنعا منه رحمه الله قدر ما كان إيمانا بحق الإنسان أن يكون حرا فيما يقول ويفعل في إطار القيم المجتمعية وفي حدود القانون والدستور، وأظنه وفّى لتحقيق الحرية التي ينشدها الجميع أحسن الوفاء.

رابعا: رغم قصر المدة التي حكم مصر إلا إنه وفّى بحسب ما يملك تجاه قضية فلسطين والمسجد الأقصى وغزة، قدم الدعم الذي يمكنه نصرة لها، حيث قضية فلسطين محور الصراع في الشرق الإسلامي، إيمانه بعدالة القضية نابع من أصل ديني إيماني وليس مجرد صراع سياسي، فكان موقفه الحاسم والمعروف من حرب غزة، وبالفعل لم يترك غزة وحدها أمام آلة الحرب الصهيونية، ذكر الشيخ رائد صلاح شيخ الأقصى أن الدكتور مرسي رحمه الله الرئيس الوحيد الذي كان يتصل به ليطمئن على المسجد الأقصى.

قضية فلسطين أهم عوامل الانقلاب عليه رحمه الله، حيث أيقن الصهاينة أن الدكتور مرسي كأحد أبناء دعوة الإخوان المسلمين الذين جاهدوا في أرض فلسطين المباركة، والذي أصبح رئيسا للشعب المصري لن يبيع أو يهادن في ذرة تراب من أرض فلسطين، والأدلة على ذلك كالشمس في رابعة النهار لا ينكرها إلا أعمى القلب والبصيرة.

خامسا: أظنه وفّى تجاه الثورات العربية التي جاءت قبل ثورة يناير 1102م أو بعدها، فموقفه من ظلم الحكام المستبدين نابع من تصور إيماني أخلاقي فضلا عن المعنى السياسي، موقفه من الثورة السورية واليمنية والتونسية وغيرها من ثورات الربيع العربي معروف ومعلن، الأمة عاشت حلقة من حلقات الثورة في كثير من بلدان العالم العربي الإسلامي، وهذه الحلقات لها ما بعدها إن شاء الله ولكن بعضنا يستعجل النجاح المبهر الكامل الذي لا شك بإذن الله قادم، يحتاج إلى عدة النصر والأخذ بأسبابه، بعد هذه الخبرات التراكمية في النجاح الجزئي والإخفاقات المتعددة، وسيبقى وفاء الدكتور مرسي لحقيقة الثورة، وأنها بنية التغيير أحد الخبرات التراكمية للمستقبل القادم بمشيئة الله عز وجل.

سادسا: الرجل الذي وفّي في الحفاظ على مقدرات الأمة، وفي مقدمتها نهر النيل، شريان الحياة الذي يمتد في أرض مصر من أسوان إلى الإسكندرية، ومعلن ما قاله الشهيد: "إن نقصت قطرة من مائه فدماؤنا هي البديل" أرعب

الخائن والغادر في الداخل والمتربص بمصر في الخارج، ولعل وفاءه للنيل كان أحد أسباب الانقلاب عليه، والواقع خير دليل وشاهد، قالوا عنه: باع قناة السويس والأهرامات، وشهروا به في كل محفل وميدان، وبان الآن من الذي فرط، ومن الذي خان، فباع العرض والأرض والحقوق التاريخية لشعب مصر.



عشت رجلاً يا سيدي، تعلمنا منك الأدب الجم، والسياسة المتوازنة، والجرأة في الحق، ومجاهدة الباطل، رضي الله عنك وأرضاك بمنازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، من عزيمتك نستمد العون والقوة بعد الله القوي، ومن إرادتك تتعلم الأجيال فن الثبات على الحق والاستمرار في الطريق حتى يأذن الله بالنصر.



قبل أن تهدم الكعبة

حازم صلاح أبو إسماعيل[1]

تحرير: محمد إلهامي

لما بنى إبرهة هذا البناء في الحبشة رفض كل الناس أن يذهبوا إليه، لأن المرء لا يحج ابتغاء القصر والفخامة، بل إن بيت الإنسان العادي أفخم من الكعبة حينذاك، فدهش أبرهة وظن أن الناس مجانين لأنهم لم يحجوا إلى قصره وظلوا يحجون إلى هذه الكعبة، فأقسم ليهدمنها.

[1] من سلسلة «السيرة النبوية»، وهي سلسلة صوتية.

أراد الله أن يفضح العقائد الباطلة الموجودة لدى العرب، لأن هذا المكان سيولد فيه في نفس السنة نبي الله أحمد صلى الله عليه وسلم، فكانت النتيجة أن دخل الأحباش بأفيالهم ووصلوا إلى حدود الكعبة.

" إن العرب لهم جعجعة وفخر، يفخرون لا بحماية أبنائهم فحسب بل بحماية جيرانهم، ويقولون: من قتل منا رجلاً قتلنا من قومه عشرة، لهم أنفة معروفة، حياة أولئك العرب مبنية على الغرور، فوصل الأمر بهم إلى أن رأوا أنه لا طاقة لهم بهذا الجيش، وقرروا التنازل رسمياً عن غرورهم، وقرروا ترك البلد: مكة بما حملت وبما فيها من البيوت وبما فيها من الأموال، تركوها وهجروها إلى الجبال! "

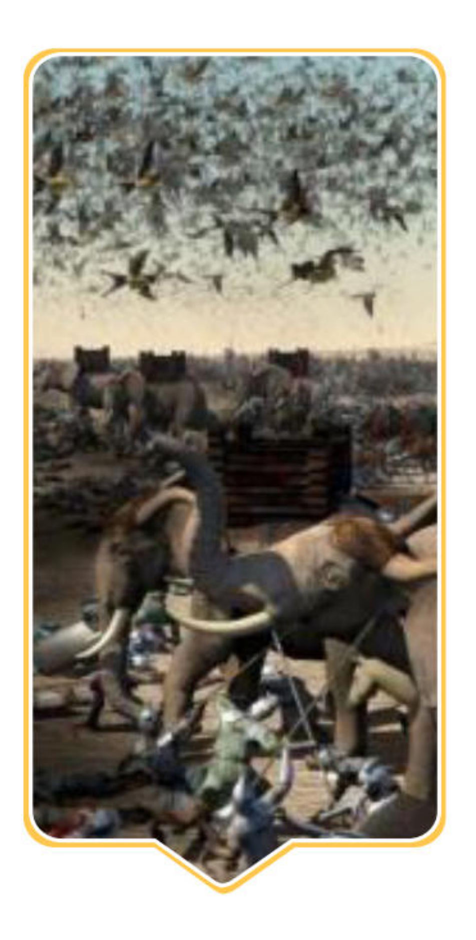
أين غرور العرب؟ أين أنفة العرب؟ أين كبرياء العرب؟ أين عزة العرب؟.. هربت كلها أمام هذا الجيش الذي لا طاقة لهم به ولا قِبَل.

خرجوا وتركوا بلدهم فريسة سهلة بدون مدافع لأعدائهم.

ولا يدري المرء ماذا كانوا ينوون أن يفعلوا بعدما يدخل أبرهة إلى مكة ويستولي عليها؟ هل سيرجعون خاضعين في ظل حكمه، أم سيظلون في الجبال؟ أم سيفرون إلى أماكن أخرى؟

الخلاصة أنهم أقروا على نفسهم بالضياع الكامل. وأراد الله أن يقروا هم على أنفسهم بالمزيد، فحدث أن جمع أبرهة الإبل في مكة وضمَّها إليه بما فيها إبل عبد المطلب الذي هو كبير القوم، وإذا بعبد المطلب الذي يحمي الكعبة ويحمي ماله، يذهب إلى أبرهة فيستقبله أفضل استقبال لما يعرف من مكانته، ثم يفاجأ بالرجل بدلاً من أن يتحدث في شأن المقدسات العليا لبلده يحدثه عن الإبل، إبله التي أخذها رجال أبرهة، فسقط الرجل من عين أبرهة، الذي أتى ليهدم الكعبة ففوجئ بكبير القوم يترك أمر الكعبة ويحدثه في شأن إبله.

وهنا يحدث ما أراد الله من هزة للعقائد المطموسة في نفوس العرب، كي يعرفوا أن الأصنام التي تركوها لا غناء فيها، ويظلون يتحدثون في هذه الواقعة سنين طويلة[٢].



لقد نُبِهت هذه العقيدة، فإذا بعبدالمطلب وبقية العرب -من بعد ما كانوا يقولون: نحن سدنة البيت، أي نحن حماة البيت، وهـذا البيت محميٌّ بالآلهة المنصوبة حوله- فإذا بهم في هذا الوقت قد تركوا البيت ولم يعودوا سدنة له، فلما كلم أبرهة عبدالمطلب وقـال له: تترك البيت وتكلمني في الإبـل؟! قـال له عبد المطلب: أما الإبل فأنا صاحبها! أنا ربها وأما البيت فله رب يحميه.

وكان هذا إقـراراً يخرج من عقائد موجودة في نفوس العرب لكن مطموسة: أن للبيت رباً يحميه.

ترك إبرهة الإبل لعبد المطلب الذي أخذها وفرَّ إلى الجبال كغيره خائفا منتظرا ما سيقضى عليه فيه، وحينئذ حدث ما تعلمون من أن الله عز وجل أرسل طيرا ما عرف الناس مثلها من قبل، فقضت على جيش إبرهة!

---

[٢] كما نتحدث نحن الآن في حرب أكتوبر التي مر عليها عشرون سنة كأنها حدثت بالأمس، مع أن هذه الحرب أخذوا منا فيها جزءاً كبيراً واستعدنا جزءاً صغيراً، ونقول عنه: نصرُ وليبارك الله فيه! لأنه قُهِر جيش طالما اقتنعوا لمدة طويلة أنه لا يُقْهر.

ومن التكلف الذي يثير الضيق أن يسأل سائل: ما نوع الطيور التي أرسلها الله على جيش إبرهة؟ هل هو من الحمام أو العصافير أو الغربان؟!.. إن العناية بهذه الأمور من دلائل الغفلة والانحراف عن فهم آيات الله. إنما جعل الله هذه الطيور نكرة غير معروفة الأنواع لأن العبرة ليست في نوع الطير، لا عبرة في كونها كانت غربانا أو عصافير أو أسرابا من الهدهد، بل العبرة في أنها الطير الأبابيل، الطير التي أرسلها الله كجند من جنده ليهلك الذين اعتدوا على بيته، طيرا يحمل الواحد منها حجرا في فمه، وحجرا في مخلبه الأيمن وآخر في الأيسر، يرمي الأحجار الثلاثة فتصيب بها أهدافها.. كل حجر يصيب جنديا، فصار الجيش حصيدا كالعصف المأكول، وتلك هي العبرة!

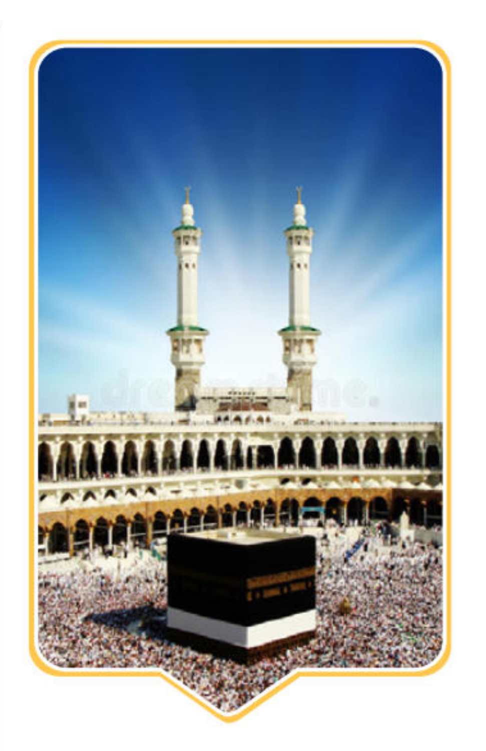
ولم تقتصر العبرة على الطير فحسب، بل على الفيل كذلك، فقد امتنع الفيل على قومه حين أرادوه أن يتجه إلى الكعبة، فكانوا يخزونه بالرماح فلا يتزحزح، فإذا وجهوه إلى غير جهة الكعبة تحرك وقفل راجعا، وما يعلم جنود ربك إلا هو!

وهكذا حُصِد الجيش الذي جاء يهدم بيت الله الحرام، وباء أعداء الله بالهلاك الشديد، وسار الخبر العجيب الرهيب في قبائل العرب، وقد عرف العرب أنهم ليسوا حماة البيت، وإنما للبيت رب يحميه!

"وهذا هو الزمن الذي وُلِد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم."

وُلِد النبي في هذا العام ليقول: أنا رسول رب العالمين، وهذه الأصنام التي تعبدونها لا تنفع ولا تضر. وما اجترأ أحد أن يقول له: بل تنفع وتضر، ذلك أنهم قريبو العهد بهذه الحادثة، وهذا الجيش الذي كاد يهدم الكعبة، ولم تغنِ عنه الأصنام شيئا. لقد رأوا ذلك بأعينهم وشهدوه، فكان ذلك تمهيدا عظيما لنبي يقول لهم: "فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف". وليقول لهم: اتركوا عبادة الأصنام تلك التي "إن يردني الرحمن بِضُرٍّ لا تغني عني شفاعتهم شيئا ولا يُنقِذون".

ولا بد هنا من الإشارة إلى أمريْن مهميْن:



فأما **الأمر الأول** فهو أن بعضنا يظن أن الكعبة محمية وأن الله لن يأذن لأحد أن يأخذها وأنه هو الذي يحميها (مثلما وقع في حادثة الفيل)، وقد كنت أشرح ذات يوم مخطط "الإسرائيليين" في القرن العشرين، وأتيت بخريطة لما يسمونه "إسرائيل الكبرى" التي تشمل مصر وفلسطين والأردن وسوريا والعراق والسعودية حتى ذلك الجزء الذي هو من مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). نسأل الله ألا يمكن لهم.

ساعتها سألني أحدهم: إذا كان الله قد حمى الكعبة أيام الكفر والكافرين حين كان الناس يعبدون الأصنام فأرسل الطير الأبابيل ولم يسمح للفيلة بهدم الكعبة، فكيف ونحن مسلمون والحمد لله.. هل يعقل أن يترك الله أحدا يأخذ الكعبة؟

نعم يفعل. وقد حدث ذلك بالفعل من قبل، واستولى بعض أعداء الله ومن عاندوا دين الله على الكعبة، وقُذِفت الكعبة بالمنجنيق. حدث هذا أكثر من مرة في تاريخ الإسلام.

إنما كانت حماية الله يوم حادثة الفيل لأنه لم تكن رسالة، ولم يكن أحد من الناس مكلفاً بالدفاع عن دين الله {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، لم يكن الله قد بعث لهم رسولاً يخبرهم أنهم مكلفون بالدفاع عن مقدسات الدين، فلما هوجمت هذه المقدسات تكفل الله وحده بالدفاع

عن مقدسات دينه. أما بعد أن أعطى الله عز وجل الخلافة في الأرض إلى يوم القيامة لمن أرسل إليهم رسوله وكلفهم أن يدافعوا عن مقدسات الدين، فإما أن يدافعوا عن مقدسات الدين أو لا، فإن لم يدافعوا أصيبت مقدسات الدين بهذه المذلة وهذا العار! وهذا المسجد الأقصى قد ذهب من أيدي المسلمين منذ عشرات السنين!

" عشرات السنين والأقصى بيد اليهود! ولو أن المرء يتخيل أن نصرانيا أو يهوديا دخل إلى المسجد الذي إلى جوار بيته ليبول فيه، أو غصبه ليحوله إلى بيت زنا والعياذ بالله، لانتفض مدافعا عن بيت الله ولو كان الثمن هو حياته، فانظر إلى المسجد الأقصى الذي هو خير من مساجدنا جميعا قد غصبه اليهود منذ عشرات السنين، والصحف تناقش جرائم الإسرائيليين والحكم الذاتي والسلام ومائدة المفاوضات وحق العيش للجميع!! لقد ذهب المسجد الأقصى وفرط المسلمون في مقدساتهم! "

لقد وَكَل الله تعالى مقدسات المسلمين إليهم بل قال لهم {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} [محمد: **٣٨**] يأتي الله بقوم يجاهدون، ينبثقون من ضمير الغيب

.

إن دور المساجد أن يتربى فيها المسلمون ليقوموا بفروض هجرها أهل هذا الدين، وإن الله تعالى يقول: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، والارتداد لا يعني الكفر بالضرورة، ولكن يعني أن يترك المرء دين الله يُسحق ويرتد هو إلى بيته لينجو بنفسه، يترك دين الله يتمزق ويقول: نفسي نفسي! ويذهب إلى بيته فيستريح! ولذلك قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: ٥٤].

لا بد أن نعلم أن حادثة الفيل إنما كانت لأنه لم تكن ثمة رسالة ولا أناس مكلفون بها!



وأما **الأمر الثاني** الذي لا بد أن نعلمه أن لله تعالى كرامة يكرم بها أهل دينه إذا صدقوا معه، وهذا من أعلى المعاني، ولا يتنافى مع ما كنا نقوله من أن حادثة الفيل لن تحدث مـرة أخـرى لأن الله كلَّف المسلمين بالحفاظ على المقدسات.

إن الله لن يرسل الطير الأبابيل إلى أناس فرطوا في الدين، ولن يحمي الله الكعبة لو جاءها الكافرون، ولا المسجد الأقصى، إلا أن يقوم أهل الدين فيدافعوا عنه.

هنا يمكن أن تتكرر حادثة الفيل مرة وثانية وثالثة وألف مرة، تتكرر مع قوم ينصرون الدين، وأبسط ما نتذكره في هذا ما حدث في أفغانستان كانوا في بداية المحنة- فقد كانت جيوش الاتحاد السوفيتي تدخل عليهم بالمدافع والدبابات والضرب بالطائرات، والمجاهدون لا يملكون الرادارات ولا يعرفون متى ستصيبهم الضربات. في ذلك الوقت فوجئوا بأن طيرا في السماء لم يسبق أن رأوا له مثيلا (وقد قابلت بعض هؤلاء فقال لي: قد انقطعت هذه الطيور من سماء أفغانستان من شهور قلائل) كانت توجد في فترات المعركة حتى أطلقوا عليها اسما من أسماء الجهاد.

يحكـي لـي أحـد مشايخ الجهاد وقد جاوز الثمانين فيقول: كانت تأتي هذه الطيور التي لم نرَ لها مثيلاً فتطير من الشرق إلى الغرب، وبعد نحو عشرين دقيقة تأتي الغارة السوفيتية من نفس الاتجاه، فإذا طار هذا السرب

من الجنوب إلى الشمال جاءت الغارة من هذا الاتجاه، ومع تكرر الأمر عرفنا أن هذه الطيور تنبهنا، حتى كنا إذا عبرت الطيور نتضاحك ونقول بقيت ثلاث دقائق على الغارة فنهرع إلى مخابئ الجبال، فتأتي الغارة وتلقي حممها ثم نخرج. هذا ما كتبه د. عبد الله عزام رحمه الله في كتابه[٣]، وسمعتها بأذني من أحد قادة المجاهدين لقيته في مِنى في أحد مواسم الحج.



المقصود أن حادثة الفيل وقعت في زمن كان في فترة من الرسل ليس فيها تكليف، وأنها لا تتكرر إذا خذل المسلمون دينهم، وإنما يمكن أن تتكرر عشرات المرات كرامة من عند الله لعباده المجاهدين إذا نصر المسلمون دينهم.

---

* ملحوظة: سجل هذا الدرس في بداية التسعينات من القرن العشرين] (إلهامي)

[٣] اسم الكتاب "آيات الرحمن في جهاد الأفغان"



الربانيون الذين صنعتهم العقيدة ومجتمعهم الآمن

••

عبد الله عزام[1]

••

لقد ربت هذه العقيدة نماذج يحسبها المرء أساطير، ولكنها الحقائق التي هي أكبر من الخيال، فلقد عاشوا للحق به يمسكون، مهما علت التضحية . ودعني أسق لك بعض الأمثلة:

---

[1] جزء من كتابه: العقيدة وأثرها في بناء الجيل

أولا: كان لسعيد بن المسيب التابعي العظيم رأي في البيعة لولي العهد، لا يراها في وجود الوالي لحديث فهمه على وجه صح عنده، واعتقد أنه مقصود الحديث، وقد آذاه الولاة في سبيل هذا، وثبت على رأيه إلى أيام عبدالملك بن مروان أراد أن يبايع لابنه الوليد، وكتب لولاة الأمصار بأخذ البيعة له، قال يحيى بن سعيد: كتب هشام بن إسماعيل والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان، إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب، فكتب أن اعرضه على السيف، فإن مضى فاجلده جلدة وطف به أسواق المدينة، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيب، **وقالوا:** جئناك في أمر، قد قدم كتاب عبدالملك إن لم تبايع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا فأعطنا إحداهن، فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل، لا، ولا نعم، قال: يقول الناس بايع سعيد بن المسيب، ما أنا بفاعل وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم، فإنه يقبل منك إذا طلبك في مجلس فلم يجدك. قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني حي على الصلاة وحي على الصلاة؟ ما أنا بفاعل، قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره، فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك، قال: أفرقا من مخلوق؟!.. لقد كان الجواب مفحما متضمنا سر هذه الصلابة بجانب الحق، إنه عدم الخوف من البشر.

ثانيا : ومن ذلك أيضا أن أبا حنيفة ترك لحم الغنم لما فقدت شاة في الكوفة إلى أن علم موتها، سبع سنين تورعا منه لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه، إذ هذا شأن أكل الحرام، وإن انتفى الإثم للجهل بعين الحرام[٢].

ثالثا : وفي (ترجمة إمام الحرمين) إن أباه (أبا محمد الجويني) كان في أول امره ينسج بالأجر، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة

---

[٢] أخلاق العلماء لمحمد سليمان ص (١٠٠)

بالخير والصلاح، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضا إلى أن حملت بإمام الحرمين، وهو مستمر على تربيتها بكسب الحل، فلما وضعته أوصاها ألا تمكن أحدا من إرضاعه، فاتفق أنه دخل عليها يوما وهي متألمة، والصغير يبكي، وقد أخذته امرأة من جيرانهم وشاغلته بثديها، فرضع منها قليلا ، فلما رآه شق عليه، وأخذه إليه ونكس رأسه ومسح بطنه وأدخل أصبعه في فيه، ولم يزل يفعل ذلك حتى قاء جميع ما شربه وهو يقول: يسهل علي أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير لبن أمه، ويحكى عن إمام الحرمين أنه كان يلحقه بعض الأحيان فترة في مجلس المناظرة فيقول: هذا من بقايا تلك الرضعة!



رابعا : قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدى وأتى سفيان الثوري، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ولم يسلم بالخلافة، و الربيع «قائم على رأسه، متكئا على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال له: يا سفيان، تفر ها هنا وها هنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك؟ فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوان؟ قال سفيان: إن تحكم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال له المهدي: أسكت ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم ؟ أكتبوا عهده على قضاة الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفع إليه، فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وهرب، فطلب في كل بلد فلم يوجد، ولما امتنع من قضاء الكوفة تولاه شريك النخعي، فقال الشاعر.

تحــرز سـفيـــان وفـــر بدينــه وأمسى شريك مرصدا للدراهم[٣]

خامسا : وكم يهزني موقف سعيد الحلبي أمام إبراهيم باشا -وهو صاحب الهيل والهيلمان والسلطان ، عندما دخل إبراهيم المسجد بقى الشيخ سعيد جالسا مادا رجله، وأقبل الناس جميعا يحيون ويصافحون، ووقف إبراهيم باشا طويلا أمام الشيخ سعيد الذي لم يقبض رجله، وسار وهو يغلي غيظا وقد استشاط غضبا ، فأخذ صرة من النقود وقال لحاجبه: ادفعها للشيخ، فعندما وضعت في حجر الشيخ سعيد قال للحاجب: "قل لسيدك: إن الذي يمد رجله لا يمد يده"[٤].

أما المجتمع الذي صنعته هذه العقيدة: فإنه مجتمع آمن، كل فرد من أفراده آمن على عرضه: فالزنا من أكبر جرائمه، يستحق عليها المحصن عقوبة الموت رجما بالحجارة.

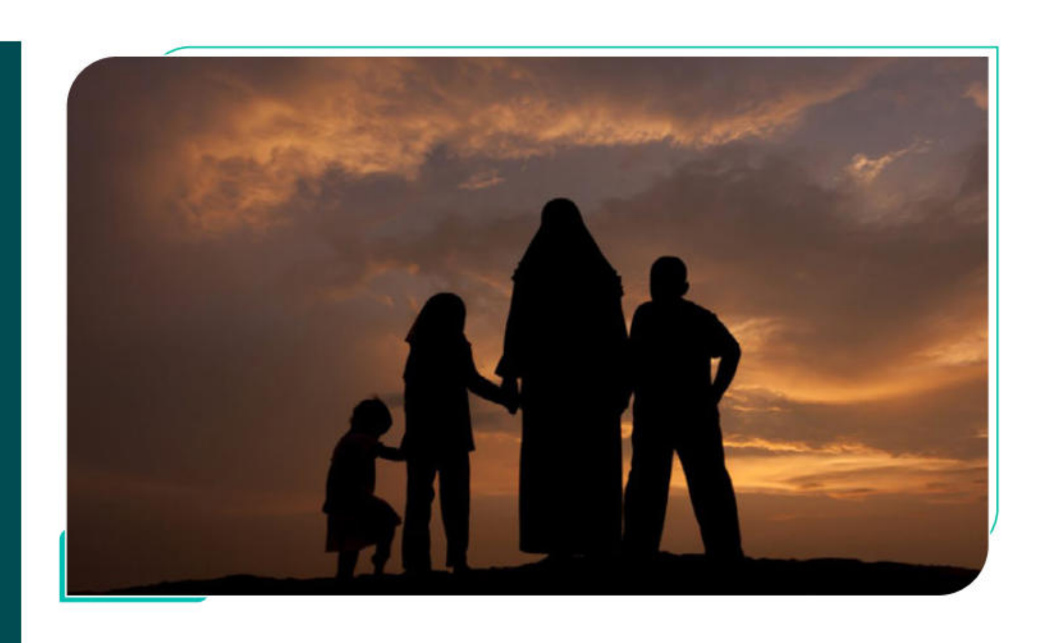
وهو من آمن من أن يمس جنابه بكلمة، سواء كانت كلمة قذف في عرض، إذ أن هذه الكلمة توجب جلد ثمانين أمام الناظرين، ولا يمس طرفه بكلمة معيبة.

وهو آمن على ماله: فالسرقة كبيرة، ومن سرق من ماله مقدار ربع دينار فإن هذا المبلغ يعرض يد السارق للقطع، وهو آمن من أن يعرض ماله للضياع عن الطرق المحرمة، فالربا محرم، والاحتكار ممنوع، والغش منفي بتاتا ، والقمار رجس من عمل الشيطان.

وهو آمن على نفسه: فكل يد تمتد لتسفك دمه ظلما فلن يكتب لهذه اليد البقاء، إذا أصر أولياؤه على الثأر من القاتل، فهذا المجتمع فيه:

---

[٣] محمد سليمان في كتابه أخلاق العلماء ص (١٦٠)
[٤] مقدمة كتاب ربانية لا رهبانية لأبي الحسن الندوي



(النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) [المائدة: ٤٥]

- وهو آمن على نفسه وماله وعرضه من الحاكم، فالحاكم والمحكوم مقيدون بأحكام الشرع، لا يستطيعون أن يخرجوا عليها.

- وهو مجتمع متحاب: أفراده كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

- مجتمع إذا صاحت امرأة مستغيثة في عمورية هب الخليفة لنجدتها من بغداد، وتحرك الجيش بأسره لمجرد صرخة ألم انطلقت من فم مسلمة.

- مجتمع يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أن أتقدم إلى سيف فيقطع عنقي -في غير معصية- أحب إلي من أن أتأمر على أناس فيهم أبو بكر).

مجتمع يقول فيه الشافعي عن الإمام أحمد بن حنبل:

قالوا يزورك أحمد وتزوره	قلت المكارم لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله أو زرته	فلفضله فالفضل في الحالين له

ويقول أحمد عن الشافعي: "لقد كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للجسد وهل لهذين من خلف، أو عنهما من عوض؟![٥]

ويقول أحمد بن حنبل: "ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له"[٦].

ويقول الشافعي: "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"[٧].

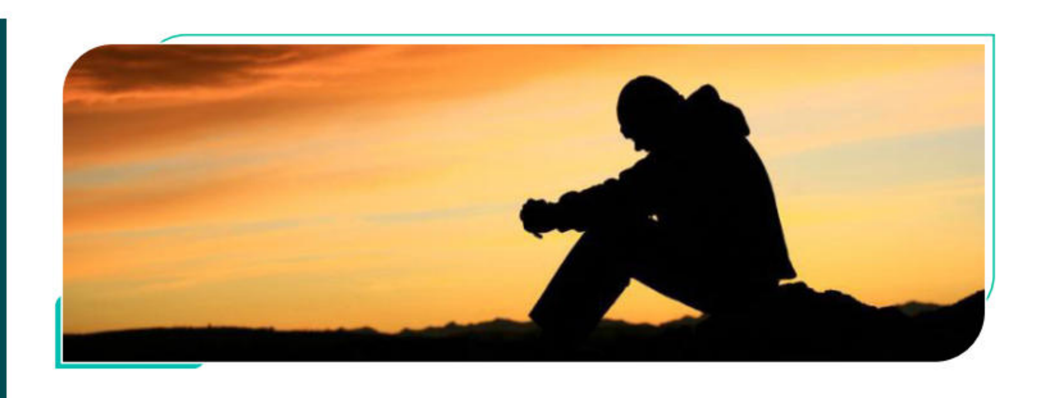
- وهو مجتمع نظيف ليس فيه من الزبد ما يطفو على وجهه، ولا من من الأقذار والمشاكل ما يعكر صفوه، مجتمع لا ترفع فيه قضية واحدة خلال عام كامل في زمن أبي بكر.

- وهو مجتمع غني.. يجمع يحيي بن سعيد صدقات إفريقيا في زمن عمر بن عبد العزيز الزكاة وينادي شهرا كاملا ليأتي مستحقوها لأخذها ولم يتقدم أحد، فأمره عمر أن يشتري رقيقا ويعتقهم.

- وهو مجتمع متراص متضامن لا خلل فيه ولا جيوب، فلا يستطيع أي جسم غريب أن يتخلل فيه أو أن يعيث فسادا، ولقد حاول ملك غسان أن يراود كعب بن مالك في أزمته التي وصفها القرآن:

---

[٥] أخلاق العلماء لمحمد سليمان ص (٢٣)
[٦] أخلاق العلماء لمحمد سليمان ص (٢٣)
[٧] أخلاق العلماء لمحمد سليمان ص (٢٣)



(حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) [التوبة: ١١٨]

في هذا الوقت الذي قاطعته المدينة بأسرها، كما يقول كعب في رواية البخاري عنه: "ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبي"[٨].

يقول كعب: "فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه في المدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا ، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضا من البلاء، قال: فيممت به التنور فسجرته به"[٩].

إنه مجتمع عجيب حقا ، يعجز ملك غسان أن يستميل إلى جانبه رجلا منبوذا منه، تنكرت له الأرض التي عليها يعيش، وتنكر له الناس الذين عاش وشب بين ظهرانيهم.

---

[٨] فتح الباري الباري لابن الحجر (٢١٤/٩)

[٩] تفسير ابن كثير (٨٩٣/٢)

وهو مجتمع أفراده على قلب رجل واحد منهم، ملتفون حول قائدهم، يتحركون بإشاراته، ويضحون لمجرد نظرة من الأمير.

هذا المجتمع الذي قاطع كعب بن مالك -حتى عن رد السلام والكلام، قاطعة حتى لم يعد يحظى بكلمة واحدة من أي فرد من أفراده، وذلك بمجرد كلمة سمعها المجتمع من الرسول القائد صلى الله عليه وسلم.

ودعنا نستمع إلى الإمام الأعظم -أبي حنيفة- وهو يعبر بكلماته القليلة عن معنى الطاعة في أعماقه للأمير، فلقد منعه المنصور من الإفتاء، وفي إحدى الليالي جرح أصبع ابنته، فجاءت تسأله عن تأثير الدم على وضوئها، فقال: اسألي حمادا ، فلقد منعني أميري من الإفتاء، وما كنت لأعصي أميري بالغيب.

فيا أبناء هذا الجيل، هذه لمحة موجزة أشد الإيجاز عن العقيدة وأثرها في بناء النفس وإنشاء المجتمع، عرضنا فيها لأركان العقيدة، وعن أثر الانحراف الخطير في حياة المجتمع إذا تخلل الإنحراف إلى العقيدة، ولقد نبهنا أن ما تعانيه البشرية اليوم من ضنك وشقاء وبؤس كان سببه عبث أيدى البشر بالعقيدة الربانية، حتى حصل هذا الانفصام النكد بين الدين والعلم، وأصبح العلم عدوا لدودا للغيب والدين، ولكن العلم والحمد لله أخذ يتراجع أمام ضغط الحقائق، ولم يعد يستطيع التمحل والمماحكة أمام الاكتشافات العلمية خاصة في ميداني النفس والفلك.

يا أبناء هذا الجيل.. لا مفر من العودة إلى ظلال هذه العقيدة، ولا بد لكم أن تفيئوا إليها، هذا إذا كنتم تفكرون في الخلاص من شقائكم وبناء أنفسكم، وإلا تسلكوا هذه الجادة فإنكم هالكون لا محالة، خاسرون دنياكم وأخراكم بكل تأكيد.

(وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم) [محمد: ٣٨]

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]

والبشرية بأسرها لا يمكن لفطرتها أن تحتمل هذا الشقاء، ولقد أضناها السير في هذه المفازة المهلكة، لا بد أن تعود بعد أن جربت جميع الأنظمة من اشتراكية وقومية ورأسمالية فتحطمت جميعا تحت مطارق الفطرة، وكان الإنسان هو الضحية والفداء.

عـودوا واحملوا الإسلام وقـدمـوه للبشـريـة المنـكوبة التـي تنتظر من ينقذها.

التفوا حول من تثقون به ممن يحمل هذا الدين علما وعملا وحياة عقيدة وعبادة ودستور حياة.

وأوصيكم وصية بسيطة أن تتعرفوا على كتاب الله، وحبذا لو حمل كل واحد منكم مصحفا صغيرا في جيبه، حتى يتعرف على رسالة رب العالمين التي أرسلها إليه ويقرأها.

وبـودي لو اشترى كل واحد كتابا مبسطا للحديث الشريف، وليكن مثلا رياض الصالحين، عليكم بمطالعة كتب المودودي، وكتب الأستاذ سعيد حوى، وكتب سيد قطب، ومحمد قطب، والندوي.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

.. وداعاً (كلمة حق) ..

حامد عبدالعظيم



الحمد لله وحـده، والصلاة والسلام على محمد الذي لا نبي بعده.. وبعد:

ها نحن نبلغ العدد السادس والثلاثين والأخير من مجلة كلمة حق، تلك المجلة التي استمرت ثلاثة أعوام بالتمام والكمال حرصت فيها على ألا تنطق إلا بما تراه حقاً، بعيداً عن التحزب لجماعات أو أشخاص، ومع ذلك لم تسلم من كلام أهل الباطل منذ انطلاقها بأنها تتبع جماعة الإخوان المسلمين أو أنها ممولة من دول أجنبية... إلخ هذه الاتهامات التي يُتهم بها كل من يعارض الظلم ويقف أمام هذه الغارة الكونية العاتية التي تستهدف القضاء على الإسلام كدين ونظام ودستور ومرجع، وتحاول تحريفه وإفـراغـه من مضمونه وجعله مجرد صلوات وأدعية وأخلاق، أما ما يخص الاقتصاد والسياسة والمجتمع وغير ذلك من معاملات الحياة، فيريدون أن يضعوا وجهة نظر الإسلام فيها على الرف.

في هذا العدد الأخير نودّع القراء الكرام حول العالم ونتوجه لهم بخالص الشكر على الثقة فينا ومتابعتنا رغم إغلاق أهل الباطل لمنافذنا الإعلامية كالموقع الرسمي والصفحة الرسمية على موقع فيس بوك، وهذا يذكرنا بضرورة أن يمتلك المسلمون الصادقون المواقع المستقلة ومواقع التواصل الاجتماعي المتميزة التي تنافس تلك المواقع التي تُدار بواسطة أعدائنا.

في هذا العدد الختامي من مجلة كلمة حق أحاول أن أؤكد بإيجاز وتلخيص على بعض القضايا المهمة التي يجب الانشغال بها وإعطائها أولوية في هذا العصر الذي نحيا فيه، وبالطبع لن أستطيع أن ألخص كل شيء لكنها مجرد إشارات سريعة.

أولاً: فهم أبعاد الحرب وشراستها

من أولى الأولويات في عصرنا فَهم أبعاد الهجوم الصليبي والصهيوني المعاصر على الأمة الإسلامية، ذلك الهجوم الذي يتخذ أشكالاً جديدة ويتلون بألوان زاهية تفتن الناظرين، هجوم يُشن تحت شعارات خلابة كالديمقراطية وحقوق الإنسان والعلمانية والتمدين والحداثة وغير ذلك، لا تحت راية الصليب واليهودية كما كان في الماضي، حين كانت الصفوف متمايزة والرايات واضحة.

الآن تجد من اسمهم محمد وأحمد وعبد الله، وديانتهم الإسلام، ومن أب وأم وأجداد مسلمين، تجدهم ألدّ أعداء الإسلام ومن أشد المنافقين نفاقاً وموالاة للصهاينة والصليبيين، وينطبق عليهم في أدق صورة قول قائدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها"... "هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا"... "رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس".



"وتجد جيوشاً ترفع راية الوطنية وهي تُدار بواسطة قادة عملاء منافقين للصهيونية والصليبية، وهي فتنة عمياء إذ إنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا وهم في الحقيقة موظفون لدى أمريكا وإسرائيل، ويستغلون التجنيد الإجباري في حشد شباب البلاد ليكونوا جنوداً لهم وحراب وأسنّة ضد كل من تسول له نفسه الإصلاح والتغيير."

وهذه مسؤولية كل مسلم حيث كان وليس الدعاة فقط، أن يبينوا حقيقة المعركة وأبعادها المركبة والمتشابكة، فهذا الدين ليس مسؤولية أصحاب العمائم فقط.

وعلى المشتغل ببث الوعي والنصح لكل مسلم في هذا الباب أن يتابع باحترافية ما يجدّ على الساحة من أحداث وتصريحات، ولا يكتفي بكتب مرت عليها أعوام عديدة، بل عليه بذل الجهد في البحث والاستقصاء ومتابعة التقارير الأمنية والأبحاث الجديدة الصادرة حول العالم. وهنا تدعو الحاجة إلى توظيف جيوش من الباحثين والمترجمين وطلبة العلم النابهين فقط لأجل هذا الثغر، وهذا من أولى ما تُنفق فيه أموال المسلمين، في إنشاء مراكز الأبحاث والترجمة ورصد مخططات الكفرة والمنافقين لتركيع أمتنا.

مراكز أبحاث تُعنى بجانب الهدم لمخططات الأعداء، وتُعنى أيضاً بالبناء عن طريق مخاطبة المسلمين بجميع مستوياتهم الفكرية ولغاتهم، وبعمل المناهج الدراسية الموازية في اللغة والتاريخ والسياسة والاقتصاد وسائر المجالات التي حُشيت بالتحريف والتجريف والتزوير.

ثانياً: علوم الكمبيوتر وهندسته

" مضى الزمن الذي يدفع فيه الآباء بأبنائهم ليصبحوا أطباء ليفتخروا بهم أمام العائلة والأصدقاء بينما يلبسون الرداء الأبيض وتُسبق أسماؤهم بلقب (دكتور)! نحن يا سادة في زمن أوشك أن يتحكم الكمبيوتر في كل شيء فيه، وأصبحت علوم الكمبيوتر مؤثرة للغاية في حسم المعركة القائمة بين الدين الإسلامي وخصومه، وفي تقدم الأمة الإسلامية في لغة العصر وهي التكنولوجيا، وألا تكون أمة متخلفة في ذيل الأمم عندما تجهل لغة العصر وأدواته. "

خذ على ذلك مثالاً بسيطاً، هذه الطائرات المسيرة بلا طيار التي تقتل كثيراً من المسلمين والمجاهدين في سبيل الله في غمضة عين، لا يمكن صناعة مثلها بدون وجود متخصصين في هندسة الكمبيوتر، ولا يمكن تجنب شرها كذلك إلا على أيدي هؤلاء المهندسين، ولا يمكن الرد بالمثل والردع بالمثل إلا على أيديهم.

لا نتحدث هنا عن فرد أو مجموعة أفراد، بل نريد جيوشاً من المهندسين والمتخصصين في علوم الكمبيوتر.. نريد شباباً ينتمون إلى هذا الدين وإلى قضيته العادلة وفي نفس الوقت يكونون متخصصين وعباقرة في علوم الكمبيوتر والبرمجة، لذلك حان الوقت أن يُعلَم الأبناء منذ صغرهم أنهم مطالبون بالتميز في هذا المجال، ويُربى أنه سيفعل ذلك من أجل تقوية الأمة الإسلامية في كل المجالات، وأن يبدأ في تعلُّم البرمجة منذ سن صغير، وهذا أصبح متاحاً ومتوافراً.

ثالثاً: الدعوة كسلاح فتاك

الدعوة سلاح قوي جداً، فكل شخص يدخل في الإسلام هو جندي جديد في جيش الإسلام، بشرط أن يُتابَع ويُربى تربية إسلامية صحيحة من ناحية الفكر والمنهج والممارسة، لا أن يفرح مَن حوله من المسلمين بدخوله الإسلام ثم يتركونه ولا يكونون حوله فيكون مسلماً خاملاً لا يفيد مَن حوله ولا يتحرك لتمكين هذا الدين. وهذا للأسف يحدث كثيراً بدافع الكسل وعدم الشعور بالمسؤولية.



بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة يزداد ثقل وتأثير المسلمين في المجتمعات غير المسلمة، ويغيرون على المدى الطويل خريطة السكان في البلد التي هم فيها، إنه تغيير ناعم وهادئ للمجتمعات، واستبدال بطيء للإيمان بالكفر، وذلك كله عن طريق الدعوة الهادئة التي تستهدف شيئين رئيسيين، الأول إدخال أعضاء جدد إلى جسد الأمة الإسلامية، والثاني تقوية إيمان وعقيدة المسلمين سواء الجدد أو القدامى. وبهذا يصير المجتمع المسلم قوياً من ناحية الكم والكيف.

وقد كتب الإرهابي الأسترالي صاحب الهجوم الدموي على المسلمين بمسجدين في نيوزلاندا والذي استشهد فيه قرابة ستين مسلماً ومسلمة، كتب قبل الهجوم في كتابه الذي نشره على الإنترنت أن من دوافع هجومه تزايد دخول الناس في الإسلام في أوروبا وأمريكا وغيرها من بلاد أصحاب البشرة البيضاء، وأن ذلك سيؤدي إلى استبدالهم بالسكان أصحاب البلاد مع الوقت وتمكين المسلمين، وسمى تلك العملية الخطيرة من وجهة نظره: "الاستبدال العظيم".

رابعاً: القوة ضرورة للحياة بكرامة

وضرورية لتحقيق المكاسب الدعوية والتمكين للدين، وليس معنى ذلك النزق والحُمق الذي رأيناه في ممارسة داعش وأخواتها من الحركات الشاذة عن جسد الأمة الوسطي بلا إفراط ولا تفريط، بل المطلوب هو القوة الراشدة التي تراعي المصالح والمفاسد بمقاييسها الصحيحة، بلا تهور.

لكن وبلا تدجين أيضاً كما نرى في الحركات السياسية التي يُطلق عليها "إسلامية" التي تتنازل من أجل مصالح متوهمة، وتظن أنها تناور، وهي في الحقيقة قد باعت مبادئها وخسرت معركتها الحقيقية وفرخّت أناساً مدجنين أصبحوا حجر عثرة أمام إخوانهم في العمل الإسلامي.

القوة المطلوبة أن تصير الحركة المسلمة أو المجتمع المسلم أو الحزب المسلم متحلياً بجميع أسباب القوة المتاحة والمناسبة لوضعه وواقعه، سواء قوة عسكرية أو اقتصادية أو مجتمعية أو سياسية أو إعلامية أو حقوقية... إلخ

ألا يكون ضعيفاً وهشاً، أو يجمد على نوع واحد من أنواع القوة ويعرض عن البقية رغم احتياجه لها، بدعوى السلمية بالنسبة للقوة العسكرية، أو بدعوى الزهد بالنسبة للقوة الاقتصادية، أو بغير ذلك من الدعاوى الفارغة التي تجعل المسلمين لقمة سائغة لأعدائهم.

"وكل هذه الأنواع من القوة لن تكون ذات فائدة بدون القوة المعنوية التي يحملها المسلم في قلبه، من تشرُّب لقيم الشجاعة والبطولة والإقدام، وتربية على سير المجاهدين والشهداء والقادة المسلمين عبر التاريخ، وخُلُق إغاثة اللهفان ونصرة المظلوم والدفاع عن العِرض والحياة بكرامة وشرَف... إلخ"

خامساً: الاستفادة من التجارب والدروس



حرصت مجلة كلمة حق كما بدا للمتابعين على أن تقدم خلاصات التجارب التي مرّت بها بعض طوائف الأمة الإسلامية، وذلك لأن من المفيد للغاية أن تطلع عليها الأجيال اللاحقة حتى لا تكرر نفس الأخطاء، مع الإقرار بأن لكل واقع تجربته الخاصة وظروفه المغايرة، لكن تبقى هناك أمور مشتركة تجعل الإحاطة بالتجارب مهمة وتُكسب الخبرة.

لذلك تدعو الحاجة إلى الدندنة حول هذه التجارب في المحاضرات والدروس والمعسكرات والمنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي، ما أصابوا فيه وما أخطأوا، وتحليل ذلك ومقارنته بالواقع بكل أمانة ودقة.

ولو أمكن وضع مادة دراسية في المعاهد والحلقات الدراسية لكان حسناً جداً، وتكون مُعدَّة بطريقة تعليمية من حيث أهداف الوحدة والمستفاد منها وأن تنتهي كل وحدة بأسئلة وأجوبة وهكذا.

مثال على ذلك ثورة ٢٥ يناير بمصر، رواية أحداثها بكل دقة ونزاهة وبعيداً عن تجميل الأحـداث، ثم تسليط الضوء على تعامل العمل الإسلامي بجميع طوائفه مع أحداثها، ثم تحليل ذلك ونقده وبيان صوابه من خطأه، وهكذا في جميع الثورات والأعمال الدعوية والاجتماعية والسياسية والتجارب الاقتصادية.

سادساً: السمع والطاعة/ الجندية/ الابتعاد عن الفوضى

كلها ألفاظ وكلمات تدل على معنى تفتقده كثير من الحركات والكيانات الإسلامية، وليس المطلوب إلغاء العقل وتسليم رايته لأناس جهلة وأغبياء، بل

المقصود ألا ينفرد كل شخص برأيه ويفعل ما يحلو له بزعم اتباع الدليل والفعل الصحيح، سواء كان هذا الشخص قائداً أو تابعاً، فالقائد يبتعد عن الاستبداد والتابع يبتعد عن الانفراد عن المجموع، فضلاً عن الانشقاق وتكوين جماعة جديدة، ثم انشطار الجماعة الجديدة إلى جماعتين أخريين وهكذا يتشتت العمل وتضعف القوة ويبدأ التراشق والهجوم المتبادل.

وتجربة الطالبان هنا جديرة بالاهتمام، فالقادة يتشاورون والأتباع يطيعون حتى لو كان لديهم رأي مخالف، وقد ساعد على ترسيخ ذلك لديهم أنهم تربوا على اتباعهم لمذهب واحد هو مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان،

فآل أمرهم إلى الاتباع في الفكر والمنهج والممارسة، وقد أدى هذا مع صبرهم على المعركة وطول نفسهم إلى انتصارهم المتوالي على الأرض أمام رأس الكفر في عصرنا الحالي الولايات المتحدة الأمريكية.

هل هذا يعني أنهم بلا عقول ولا رغبات؟ بالطبع لا، ولكن يعني شعورهم بالمسؤولية وتحملهم لها حتى لو كان هوى أنفسهم في مكان آخر، وهو الأمر المفقود في كثير من الكيانات الإسلامية العربية التي ينتشر في أوساطها إعجاب كل ذي رأي برأيه والفوضى المذهبية والنشأة على الفوضى في العمل والفردية.

سابعاً: إدراك حجم المعركة

نحن في معركة طويلة مع الشيطان وحزبه، ومع الكفر وأهله، وهي معركة طويلة للغاية، ولابد أن توطّن نفسك على أن تفعل ما في وُسعك دون أن ترى نتيجة ذلك في حياتك، فمعركتك التي أنت مطالب بالانتصار فيها هي أن تموت على كلمة التوحيد، مؤمناً بها.. عاملاً لها.. مدافعاً عنها.. غير متنازل عنها.. داعياً لها.. مخلصاً لأمتها أمة التوحيد.



أما استعجال النصر فيؤدي إلى نتائج كارثية على العمل الإسلامي نفسه، لا تفعل فعلاً قبل أوانه وإن انتظرت عشرات السنوات، بل لو انتظرت عمرك كله ولم تكن الظروف مواتية فلا تُقدم عليه، لأنه ببساطة لن يؤثر التأثير المطلوب، وتكون فقط قد فرغت شحنة الغضب التي بداخلك دون أي مكاسب.

والعكس صحيح، إذا أصبحت الظروف ملائمة وأثبتت الأبحاث ومسْح الواقع ذلك، وإذا توفرت الإمكانيات اللازمة (القدرة= وهي شرط ضروري)، وإذا قال الخبراء والمحنكون بنتيجة الشورى فيما بينهم= حينها يجب التحرك بتواضع وعلى بركة الله.

بدون ذلك فالتعبد لله يكون بالانتظار، نعم فالانتظار يكون عبادة أحياناً، وكف الأيدي عبادة، والصبر عبادة، ولكن مع العمل الجاد المتواصل بالليل والنهار، لا الانتظار الأجوف والتواكل الأعمى. وفي هذا يقول الإمام العبقري شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فالواجب على المسلم أن يجتهد في ذلك بحسب وسعه، فمن ولي ولاية يقصد بها طاعة الله، وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من الواجبات واجتناب ما يمكنه من المحرمات، لم يؤاخذ بما يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجَّار. ومن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه والدعاء للأمة ومحبة الخير وفعل ما يقدر عليه من الخير، لم يكلف ما يعجز عنه، فإن قوام الدين بالكتاب الهادي والحديد الناصر كما ذكره الله تعالى». [مجموع الفتاوي ج٢٨/ ص٣٩٦]



وفي نهاية هذه الرحلة مع مجلة كلمة حق، لا يسعني إلا أن أوصي إخواني وأخواتي وقبلهم نفسي بتقوى الله تعالى، والعمل الجاد لدين الله، وثغور العمل كثيرة ومتشعبة، من العلم الشرعي والتقني والدعوة وتربية النشء والجهاد وإعداد النفس... إلخ، فليكن كل منا على ثغر ولا يضيع حياته سدى، وعسى الله أن يجمعنا في المستقبل في عمل جديد لنسعد بكم وبالتواصل معكم.

وأتوجه بالشكر لزملائي بالمجلة الذين كانوا وراء خروج أعدادها في هذه الحُلة الرائعة.

هذا وأحب أن أنهي مشاركاتي في صفحات هذه المجلة بآيات من كتاب الله تعالى، أوصي نفسي وإخواني بقراءتها وتدبرها وقراءة تفسيرها وأسباب نزولها، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)) [سورة النساء]

صدق الله العظيم

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

klmtuhaq



السنة الثالثة العدد ٣٦ يوليو ٢٠٢٠

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
حامد عبدالعظيم